من وسائل التزكية للنفس العاصية

بقلم/ حاتم إبراهيم سلامة

الإهداء

أهدي هذه الرسالة إلى كل نفس أشقتها المعاصي، وغرتها الدنيا، وألهتها الشهوات، أهديها لكل قلب يتوق إلى رضوان ربه، وينفطر ألمًا لجفاء حنينه، علها تكون دليلا للحائرين، وسبيلا للسالكين، وبصيرة للراغبين، إلى عتبات الحضرة الإلهية، حيث المحبة والقرب والعبودية والولاية.

مقدمة

يظن بعض المصلحين أن نهضة المجتمع تقوم ابتداء على التقدم العلمي والاقتصادي والسياسي، وأن التأخر في هذه الميادين، هو السبب المباشر في تقهقر الدول وضياع الأمم، والحق أن أول الميادين التي يجب أن ينظر إليها المصلحون ويولونها اهتمامهم، ويعتقد فيها يقينهم في عملية النهوض، هو الإنسان نفسه، كيف يكون وكيف يحيى؟ حتى يكون مؤهلا لبناء نهضة شاملة وتقدم ثابت قويم.

وفي مجتمعاتنا المسلمة، برز ديننا نحو هذا الطريق، وسخر له كل اهتمامه وجل جهده ووافر نصوصه وتعاليمه، حتى يبني الإنسان المنشود الذي تقوم عليه الحضارة، وتنطلق منه النهضة، ويكون نواة لبناء لمجتمع قوي متقدم.. اعتمد الإسلام على تزكية النفس التي يربي عليها الإنسان المسلم النبيل، الذي يتحلى بالخشية والمعرفة والطاعة والمروة والرجولة والإيجابية والإخلاص والتوكل، ليقدم

الصورة المثلى للإنسان الكامل الذي يريده الإسلام، ولعله من أصعب الأعمال في تكوين الأمة الراشدة، وإذا تحقق.. كان كل شيء بعده سهلا وتحقيقه ميسورًا.

لقد أدرك سلفنا الكريم، أن فضل الإنسان وقيمته، ليست في العلم والجسم، بقدر ما هي ابتداء بالنفس، وما تحلت به من طهارة القلب، ونقاء السريرة، وسلامة الوجدان، نعم.. لقد قدم الله تعالى التزكية على العلم في قوله تعالى:

"هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ"[1]

فالعلم لا يثمر الخير إلا إذا كان قلب متلقيه نقيًا وضميره حيًا، ومن هنا تقدمت التزكية على العلم.

انظر للعالم الحديث، كيف تطور في كل شيء، ووصل إلى القمر، وغزى الفضاء، وأبهر الدنيا بما أنتجته العقول، ثم تراه لم يتقدم في ميدان القيم بشيء، فما زال الغرب رائد الحضارة والتقدم، هو ذاته رائد الفجور والفساد في الأرض.؟!

إن آفات النفس التي يجدها الإنسان في صدره، تعوق عليه وصوله لربه سبحانه وقربه منه، والاهتداء إليه، والعجب والكبر والغرور والنفاق والحقد والغل والحسد والبخل والرياء وغيرها من موبقات النفس وأمراضها، لا سبيل لعلاجها إلا بالتزكية الإيمانية ووسائلها المشروعة، حتى تقدم الإنسان المنشود الذي تسعد به الحياة، ويهنأ به الأحياء.

والمسلم إذا لم يسلك دروب التزكية، ويجعل لنفسه منها منهاجًا وأورادًا وطريقًا وسلوكًا، فلن ينفعه ما يؤديه من التكاليف الشرعية بشيء، لن يؤديها بروحٍ وشغف، لن يجد أثر حلاوتها في نفسه، سيقوم إليها مبغضًا كارهًا متثاقلا.

ومن عجب أن تهمل التزكية في هذا الزمان الذي أطبقت فيه الشهوات، ومارت فيه الفتن مورًا، ولم يسلم فيه من الشهوات إلا من عصم الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (والزكاة في اللغة: النماء والزيادة في الصلاح، يقال: زكا الشيء إذا نما في الصلاح، فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح، كما يحتاج البدن أن يربَّى بالأغذية المصلحة له، ولا بدّ مع ذلك من منع ما يضرّه، فلا ينمو البدن إلَّا بإعطائه ما ينفعه ومنع ما يضره، كذلك القلب

[1] - الجمعة: 2

لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره، وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا)[1]

واليوم نضع هذه الصفحات التي اجتهدت فيها بنقل كثيرٍ من الآثار والشواهد المهمة حول بعض محطات التزكية، التي يمكن أن تكون نبراسًا وبداية لكل مسلم؛ وجد في نفسه فتورًا، وفي قلبة نفورًا، فينشغل بها كبداية ليصلح ذاته، ويُسعد روحه، ويتذوق معنى العبودية الحقة لبارئه سبحانه، ويجعل منها طريقه للنفور من المعصية التي تجلب عليه سخط الله وغضبه، ويحتضن بقلبه وجسده شعب الإيمان، حتى تهفو روحه، وتسمو نفسه، ويصير من عباد الله المكرمين.

حاتم إبراهيم سلامة

الفصل الأول

بين يدي التزكية

[1] - مجموع فتاوى ابن تيمية المجلد العاشر

وتقرأ فيها

*حاجتنا إلى التزكية

أيها العصاة لا تيأسوا من رحمة الله

*كتب على نفسه الرحمة

*تحذير المُقنطين من رحمة الله

*الرفق واللين بأصحاب المعاصي

حاجتنا إلى التزكية

إن علاقة الإنسان بربه، ليست علاقة عقيمة جامدة، وليس بناؤها على الأمر والنهي والتحريم والتحليل فقط، ليس هذا لب الدين ولا حقيقة الشرع، ولا مراد الإسلام.

وإنما هي علاقة تقوم على معنى العبودية الحقة لله تعالى، علاقة تقوم على حب الله والأنس به وطلب رضوانه والقرب منه، ونيل توفيقه ورضاه، علاقة تشعر معها بأن الله وكيلك وحسيبك وكفيلك وناصرك، ولن تكون هذه العلاقة إلا بتزكية النفس عبر وسائلها المشروعة في ضوء الشريعة، بعيدًا عن غلو المتنطعين، وشطحات المبتدعين.

وأي إنسان يزعم تمسكه بالدين، وقيامه بالأمر والنهي، ونفسه جافة لم تتحلى بالتزكية، فذلك زعم ساقط، وقيام عمره قصير؛ لأنه لن يشعر بحلاوة الإيمان التي يقذفها الله في قلب كل من يزكي نفسه.

إن مما يثير الأسى أن تجد بعضًا ممن يعملون في حقل الدعوة، وينصبون من أنفسهم رجالا لها.. هم أول من يتحلل من السمات التي تفرضها عليهم هذه الدعوة، إذ تجد الهرج والمرج، والخلاف والاختلاف، والمزاح والتطاول، وقلة الاحترام

والتوقير، والتفريط والتعاون، والتكاسل والتخاذل.. وتجد كذلك ضيق الصدر وتسفيه الآخرين في آرائهم وشعورهم، وتجد الغيبة وسوء الظن والانشغال بالتوافه، وتتبع أخبار الآخرين والحديث عن عيوبهم.

كل هذه المبازل غرق في غيها بعض أبناء الدعوة وفتيانها، فهل يليق بهم بعد ذلك أن يكونوا أهلا حقيقيين لحمل هذه الدعوة، وهم يحملون ما يضادها ؟!

إن الأمر جد خطير، ولابد لنا من وقفة ويقظة، تحرر النفس من غلوها، وتَسلط الهوى على مكنونها، لنستطيع أن نعود بالشاردين، وأن نرشد التائهين، فنصوغ جيلا مباركًا تعز به الأمة، وتنهض به الدعوة.

ولن تكون هذه اليقظة، ولن يتحقق هذا التحول الكبير، إلا حينما تنشط نفوسنا في عالم الروح، وتأخذ حظها من التزكية.

وكما قيل:

"محال أن تنهض أمة بغير هذه اليقظة الحقيقية في النفوس والمشاعر"[1]

ويدلي سعيد حوى رحمه الله تعالى بدلوه، فيجعل من التزكية وإحياء مقوماتها نواة كبرى، ومقدمة مهمة للتجديد الإسلامي في المجتمعات المسلمة حيث يقول: " ولئن كان تجديد الإسلام يدخل فيه تجديده على مستوى الأفراد والأسر والشعوب الإنسانية، وعلى مستوى المجتمعات والحكومات، فإن الإحياء الروحي هو المقدمة للتجديد الإسلامي كله، فإن لم تحيا القلوب وتزل الأنفس ويتأدب مع الله ومع خلقه، فلا جديد على الأرض الإسلامية ولا تجديد"[2]

ويقول شيخنا محمد الغزالي:

"والإسلام لا يستغني عن هذا الجانب، أعرف دارسين للدين بارعين في شتى علومه، ولكن قلوبهم خواء، وبواطنهم لا تتحرك فيها إلا غرائز العوام، ومطالب الدنيا.. إن الدين ما ينتفع بألسنة هؤلاء إلا أن تحيا قلوبهم بعد ممات، وتهتز بخشية الله اهتزاز الأرض بالنبات"[3]

وقال الحق سبحانه وتعالى:

[1] - من أقوال البنا رحمه الله
[2] - المستخلص من تزكية الأنفس – سعيد حوى
[3] - راجع ركائز الإيمان بين العقل والقلب- محمد الغزالي

" قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا "[1]

نعم.. إنها التزكية.. أن تقوم النفس على ما يذكرها بخالقها، ويقوي الصلة بينها وبين بارئها.

" فقد أصبحت الحياة المادية المعاصرة رحى طحون، والناس هم الحب المحصور بين حجريها الكبيرين، تطحنهم طحنًا، ثم بعد ذلك يعجنون و يخبزون، ولا تُنضجهم إلا النار"[2]

ولا سبيل أمامنا غير التزكية، والحياة الربانية الطاهرة، لكي تبلغ نفوسنا تقواها، ويمنحها الله الهداية والرشاد.. أما حينما يغفل الإنسان عن التزكية، ويطلق لنفسه العنان لتهوي به ذات اليمين وذات الشمال، فلن يكبح جماحها غير النار.!

ومن كانت حالته هذه، فقد خاب وخسر خسرانًا مبينًا، لأن نفسه فارغة تافهة، لا قيمة لها ولا وزن، إنها صورة:

النفوس الفارغة

"التي لا تعرف الجد، فتلهو في أخطر المواقف، وتهزل في مواطن الجد، وتستهتر في مواطن القداسة، والنفس التي لا تفرغ من الجد والاحتفال بالقداسة، تنتهي إلى حالة من التفاهة والجدب والانحلال.. فلا تصلح للنهوض بعبء، ولا الاضطلاع بواجب، ولا القيام بتكليف، وتغدو الحياة فيها عاطلة هينة رخيصة"[3]

إن كل عاقل لابد وأن يعلم أن النفس قد ألهمت فجورها كما ألهمت تقواها، وإنها لا تقل خطورة في العداء عن الشيطان.

قال ﷺ:

" أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك"[4]

وهو ما عبر عنه الشاعر الحكيم بقوله:

إني ابتليت بأربع ما سلطوا** إلا لشدة شقوتي وعنائي

إبليس والدنيا ونفسي والهوى** كيف الخلاص فكلهم أعدائي

---

[1] - سورة الشمس - 9
[2] - الحياة الربانية والعلم- يوسف القرضاوي
[3] - الظلال
[4] - رواه البيهقي في الزهد بإسناد ضعيف

فلنسلك درب التزكية صابرين مرابطين

فعسى الله أن يمنحنا قربه، ويغمرنا بفضله.

والتزكية كما قيل مهمة للإنسان من عدة أوجه:

1 – أن الله عز وجل أقسم في كتابه أحد عشر قسماً على فلاح من زكى نفسه، وعلى خسران من أهمل ذلك، قال تعالى: فقال: { وَالشَّمْسِ } [الشمس:1] هذا القسم الأول: { وَضُحَاهَا } [الشمس:1] هذا القسم الثاني: { وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا } [الشمس:2] هذا القسم الثالث: { وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا } [الشمس:3] هذا القسم الرابع: { وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا } [الشمس:4] القسم الخامس: { وَالسَّمَاءِ } [الشمس:5] القسم السادس: { وَمَا بَنَاهَا } [الشمس:5] القسم السابع: { وَالأَرْضِ } [الشمس:6] القسم الثامن: { وَمَا طَحَاهَا } [الشمس:6] القسم التاسع: { وَنَفْسٍ } [الشمس:7] هذا القسم العاشر: { وَمَا سَوَّاهَا } [الشمس:7] هذا القسم الحادي عشر، فهذه أحد عشر قسماً متوالية من ربنا سبحانه وتعالى الذي يصدقه عباده دون قسم، ولكنه أقسم للتأكيد أحد عشر قسماً على النتيجة وهي قوله: { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } [الشمس:9-10].{ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا } [الشمس:9] الفلاح فلاح الحال في الدنيا والآخرة، (من زكاها) أي: من زكى نفسه، وهذا يدلنا على أهمية هذه التزكية.[1]

2 – أن النفس من أشد أعداء الإنسان الداخليين، لأنها تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، وسائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانبها، ولذلك كان ^ يستعيذ بالله من شرها كثيراً، كما في خطبة الحاجة(8)[2] وكما في حديث أبي هريرة عند ابن أبي حاتم قال سمعت رسول الله ^ يقرأ "فألهمها فجورها وتقواها" فقال: "اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها" وفي المسند والترمذي أنه^ علم حصين بن عبيد أن يقول "اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي".

قال ابن القيم رحمه الله: وقد اتفق السالكون على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها والظفر بها.[3]

قال بعض العارفين :

"انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم."[1]

---

[1] - من دروس الشيخ محمد الحسن الددو

[2] - هي قوله صلى الله عليه وسلم : (الحمد لله نحمده ونستعينه...) أخرجه أبو داود والترمذي وصححه والحاكم والبيهقي.

[3] - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان

3 – أن التزكية طريق الجنة، قال الله تعالى: "وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى" فهي إذن شرط لدخول الجنة.

4 – أن الإنسان محب للكمال فينبغي لـه أن يعمل على إكمال نفسه بتزكيتها وتربيتها، فهذه النفس تصاب بالأعراض التي تصاب بها الأبدان، فهي محتاجة إلى تغذية دائمة ومحتاجة إلى رعاية، ومحتاجة كذلك إلى متابعة للازدياد من الخير كما يزداد البدن من الطاقات والمعارف، فلذلك احتاج الإنسان إلى أن يراقب تطورات نفسه، ويعلم أنها وعاء إيمانه، وأهم ما عنده هو هذا الإيمان، فإذا سلبه فلا فائدة في حياته، فلا بد من العمل على تنمية هذا الإيمان وزيادته عن طريق تزكية هذه النفس وتهذيبها.[2]

يقول سيد رحمه الله:

إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة، مزدوج الاستعداد مزدوج الاتجاه، بمعنى أنه في طبيعة تكوينه : من طين الأرض، ومن نفخة الله فيه من روحه، وهو لذلك مزود باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال، فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى أيهما أراد، وهذه قدرة كامنة في كيانه يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها..." ويعبر عنها بالهداية تارة "وهديناه النجدين" وإلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان هي التي تناط بها التبعة، فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعدادات الخير فيها وتغليبها على استعدادات الشر فقد أفلح، ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب "قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها"[3]

التخلية قبل التحلية

ثم يأتي العلم بعد ذلك ليتوج مسارها ويكمل دلائلها.

انظر هنا، ماذا بك لو وجدت عالمًا صغير النفس ضعيف الهمة، مبتذل المروة، خائر الوجدان، هل ترى قيمة لعلمه، أو ثمرة لجهده؟!

وهذا تمامًا ما أدركه سلفنا الصالح، حين تعهدوا طرق التزكية والتزموا وسائلها، وجاهدوا أنفسهم حتى حققوا معنى العبودية، والتمسوا سبل التقوى، فكانوا أئمة الهداية، وزعماء السمو الإنساني، ووصلوا في تحقيق معنى الإنسانية مالم يصله

[1] - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان
[2] - شريط التزكية لمحمد الحسن
[3] - الظلال

غيرهم من رموز الأمم الأخرى ومصلحيها، فكانوا بتاريخهم درة في جبين هذه الآمة تباهي بهم، وتتسامى بتراثهم.

لقد كان عبد الرحمن بن القاسم المصري (الفقيه المالكي) يقول:

خدمت الإمام مالك عشرين سنة، كان منها ثمان عشرة سنة في تعليم الأدب، وأخذت منه العلم في سنتين

وقد كان الإمام مالك يقول: "ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما العلم ما نفع، وعمل به صاحبه "

وكان الإمام الشافعي يقول: "قال لي الإمام مالك: يا محمد، اجعل عملك دقيقاً، وعلمك ملحاً"

وكان عبد الله بن المبارك يقول: "من حمل القرآن، ثمَّ مال بقلبه إلى الدنيا فقد اتخذ آيات الله هزوًا .. وإذا عصى حامل القرآن ربَّه، ناداه القرآن في جوفه: ـ والله ـ ما لهذا حُمِلت، أين مواعظي وزواجري؟ وكل حرف منى يناديك ويقول: لا تعصِ ربَّك".

وكان الإمام أحمد بن حنبل إذا رأى طالب العلم لا يقوم من الليل، يكف عن تعليمه، وقد بات عنده أبو عصمة ليلة من الليالي، فوضع له الإمام ماء للوضوء، ثمَّ جاءه قبل أن يؤذن للصبح فوجده نائماً، والماء بحاله فأيقظه .

وقال: لم جئت يا أبا عصمة؟، فقال: جئت أطلب الحديث.

قال: كيف تطلب الحديث وليس لك تهجد في الليل ؟! .. اذهب من حيث جئت.

وكان الإمام الشافعي يقول: "ينبغي للعالم أن يكون له خبيئة من عمل صالح فيما بينه وبين الله تعالى، فإن كل ما ظهر للناس من علم أو عمل قليل النفع في الآخرة، وما رؤى أحدٌ في منامه فقال: غفر الله لي بعلمي إلا قليلٌ من الناس"[1]

كان يوسف بن أسباط يقول: "أني لأهمَّ بقراءة السورة ثم أعرف ما جاء فيها، وأميل إلى التسبيح"، فقيل له: يا أبا محمد، وما جاء فيها؟، قال: "أن الرجل ليبدأ بأول السورة فإن كان ليس يعمل بما فيها لم تزل السورة تلعنه من أولها إلى آخرها، وما أحب أن يلعنني القرآن" .. وكتب يوسف إلى حذيفة: .. من كان طلب الفضائل أهم

[1] ـ مقدمة المجموع للنووي

إليه من ترك الذنوب فهو مخدوع وقد حبب أن يكون خيراً عالياً أصبر علينا من ذنوبنا.[1]

إن صلاح القلب لا يصلح به الجسد وحده، وإنما تصلح به الدنيا قاطبة، فاجتهدوا في إصلاح قلوبكم ونفوسكم بالتزكية، فقد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها.

أيها العصاة.. لا يأس من رحمة الله

إن للمعاصي أثر سيء على النفس، وأعظم أثارها أنها تقطع الصلة بين العبد وربه، فيشعر بالوحشة والضيق والظلمة والحرمان.. ناهيك عن شؤمها الذي يلحق به في بدنه وأمور معاشه في الدنيا، وما يصيبه منها من عاقبة وخيمة في الاخرة.

إن المعاصي:

* تحرم من العلم الذي هو نور يقذفه الله في قلب عبده

* وتحرم من الرزق والبركة

*وتوجد في القلب وحشة وظلمة

* وتقصر في الأعمار

* وتهدم الإرادة وتورث الذلة

* وتفسد العقل وتطبع القلب

* وتجلب لعنة الله سبحانه

* وتزيل النعم وتجعل العيش ضنكًا

كل هذا الشقاء يجده الإنسان ويشعر به حينما يصير من أهل المعاصي والذنوب.!

وبعد هذا نقول: إنه مهما جاء الإنسان بأبشع الذنوب واقترف أشد المعاصي، وأحقر الخطايا، فإن الله تعالى يفتح أمامه طريق التوبة والإنابة، ويبشره بمغفرة الذنوب ومحو السيئات، وهذا من عظيم رحمة الله بخلقه، قال تعالى:

[1] - حلية الأولياء

(إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) [1]

وقال الحسن البصري رحمه الله معلقًا على الآية الكريمة:

" انظر إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.!!"

لقد ذم الله سبحانه بواعث اليأس، وحذر من كل خطوة تدعو للقنوط، مهما كان الإسراف على النفس، ومهما كان ثقل الذنب ضخمًا وحجمه كبيرًا.

قال تعالى:

" إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ "[2]

وقال تعالى:

"قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"[3]

ويقول سبحانه في الحديث القدسي:

" يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنكَ وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّماءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَو أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايا، ثُمَّ لَقِيْتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً"[4]

" فلا تؤودنك كثرة الخطايا، فلو كانت ركاما أسود كزبد البحر، ما بالى الله عز وجل بالتعفية عنها إن أنت اتجهت إليه قصداً وانطلقت إليه ركضاً، إن الكنود القديم لا يجب أن يكون عائقاً أمام أوبة صادقة.. ورجعة حقيقية"[5]

وبعد هذا كله.. هل يسمح العبد لنفسه أن يشوبها اليأس ويسيطر عليها القنوط؟!

كتب على نفسه الرحمة

[1] - البروج: 10
[2] - يوسف:87
[3] - الزمر: 53
[4] - رواه الترمذي
[5] - جدد حياتك – الشيخ محمد الغزالي

كتب الله تعالى على نفسه الرحمة، وسمى نفسه الرحيم وصدق تعالى فيما وصف به نفسه، لما فتحه للعباد من أبواب رحمته وغفرانه، مهما أثمت أيديهم وجنت جوارحهم.

قال ^ :

"لمّا خلق الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي، وفي رواية: غلبت غضبي، وفي رواية: سبقت غضبي" [1]

عن أبي هريرة τ قال: سمعت رسول الله ^ يقول:

(إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة) [2]

وعن أبي هريرة τ: عن النبي ^ فيما يحكي عن ربه -تبارك وتعالى، قال:

"أذنب عبد ذنبًا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال الله -تبارك وتعالى: "أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أيْ رب، اغفر لي ذنبي، فقال -تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أيْ رب، اغفر لي ذنبي، فقال -تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، قد غفرت لعبدي، فليفعل ما شاء"[3]

وعن عمرَ بنِ الخطاب τ قَالَ:

"قَدِمَ رسُولُ اللَّهِ ^ بِسَبْيٍ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَسْعَى، إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا في السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْزَقَتْهُ بِبَطْنِها، فَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ رسُولُ اللَّهِ ^ : "أَتُرَوْنَ هَذِهِ المَرْأَةَ طارِحَةً وَلَدَهَا في النَّارِ؟ قُلْنَا: لا وَاللَّهِ، فَقَالَ: للَّهُ أَرْحَمُ بِعِبادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا"

ما أروع تصويرك يا رسول الله لرحمة الحق سبحانه بعباده، وأي يأس يستبد بالنفس حينما يعلم المرء هذا السيل المدرار من رحمة ربه وخالقه سبحانه؟!

إنه لعطف يملأ نفس العصاة خجلا، ويحملهم على الطاعة وهجر المعصية، ويشحن قلوبهم بالرجاء، ليرددوا مع القائل قوله:

---

[1] - رواه البخاري ومسلم
[2] - رواه مسلم
[3] - البخاري ومسلم

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة ** فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن ** فبمن يلوذ ويستجير المجرم؟

تحذير المقنطين من رحمة الله

ما أجهله هذا الداعية الذي يفتن الناس عن دين الله، إنه يأخذهم بالشدة ويغلظ عليهم، ويقنطهم من رحمة الله سبحانه.

إنه يشتد على العصاة ويقسوا عليهم في وعظه بلفظه، ويسير في غطرسته حتى يحكم على العاصين بأنهم من أهل النار.!

هكذا يصدر حكمه فيهم بما لا يعرف، وكأن مفاتيح الجنة والنار بيديه، يدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار.!

أين الحكمة، وأين الموعظة الحسنة، وأين اللين الذي حث عليه رسول الله ^، وتبدى في ظهوره في مواقفه العملية؟! لقد كان الأعراب والمشركون وغلاظ الأخلاق، يأتونه فيرمونه بألفاظ فجة فظة، لا تمت للذوق بصلة، ولا تعرف إلى الأدب سبيلا، فما كان منه ^ إلا أن قابل ذلك كله بوجه طلق ولسان عف، وبسمة حانية، فيرون فيه رقي الخلق، وسماحة الطباع، وأمارة النبوة، فتنشرح قلوبهم للإسلام.

قال شيخنا الغزالي رحمه الله:

"هناك دعاة سوء يحشرون يوم القيامة فتانين، لأنهم يؤذون الله ورسوله لسوء تصويرهم للإسلام، وجهلهم لفقه الدعاة، وكأن وظيفتهم الصد عن سبيل الله"

لقد رد الحق سبحانه وتعالى رسوله الكريم ^ حينما دخل عليه رهط من أصحابه وهم يضحكون فقال لهم:

"لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، فأتاه جبريل فقال: إن الله يقول لك: لم تقنط عبادي؟ فرجع إليهم فقال: سددوا وأبشروا"[1]

ثم بعد ذلك تتابعت الأحاديث التي تحذر من هذا السلوك الذي يرفضه الحق تعالى، فعن أبي هريرة τ قال: سمعت رسول الله ^ يقول:

"كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين ، فكان أحدهما يذنب ، والآخر مجتهد في العبَّادة ، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول : أقصر . فوجده يوما على ذنب فقال له : أقصر . فقال : خلني وربي أبعثت علي رقيبًا ؟ فقال : والله ! لا

[1] - رواه ابن حبان في الزوائد

يغفر الله لك – أو لا يدخلك الله الجنة ! – فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال لهذا المجتهد : كنت بي عالما ، أو كنت على ما في يدي قادرا ؟ وقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار"[1]

وعن جندب أن رسول الله ^ حدث:

"إنَّ رجلًا قال : و اللهِ لا يغفرُ اللهُ لفلانٍ ، و إنَّ اللهَ قال : من ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفرَ لفلانٍ ؟ فإني قد غفرتُ لفلانٍ ، و أحبطتُ عملَك"[2]

وعن أبي سعيد الخدري τ عن النبي ^ قال:

"كانَ في بَنِي إسْرائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعِينَ إنْسانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْألُ، فأتَى راهِبًا فَسَألَهُ فقالَ له: هلْ مِن تَوْبَةٍ؟ قالَ: لا، فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْألُ، فقالَ له رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذا وكَذا، فأدْرَكَهُ المَوْتُ، فَناءَ بصَدْرِهِ نَحْوَها، فاخْتَصَمَتْ فيه مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلائِكَةُ العَذابِ، فأوْحَى اللَّهُ إلى هذِه أنْ تَقَرَّبِي، وأَوْحَى اللَّهُ إلى هذِه أنْ تَباعَدِي، وقالَ: قِيسُوا ما بيْنَهُما، فَوُجِدَ إلى هذِه أقْرَبَ بشِبْرٍ، فَغُفِرَ له"[3]

هكذا الله تعالى يغفر له وهو القاتل السفاح سافك الدماء، وليس في الأرض ذنب أفسد من القتل، ولكن الله تعالى ينحي كل ذلك جانبا، حينما يرى صدق العزم من عبده على التوبة والإنابة..

يقول أبو حامد الغزالي:

"وحظ العبد من اسم (الرحمن) أن يرحم عباد الله الغافلين، فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله بالوعظ والنصح بطريق اللطف دون العنف، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة، لا بعين الإيذاء، وأن يرى كل معصية تجري في العالم كمعصية له في نفسه، فلا يألو جهدًا في إزالتها بقدر وسعه؛ رحمة لذلك العاصي من أن يتعرض لسخط الله تعالى، أو يستحق البعد عن جواره."[4]

ويقول علي كرم الله وجهه:

"الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤيسهم من روح الله"[5]

---

[1] - رواه أبو داود
[2] - صحيح مسلم
[3] - صححه الألباني في صحيح الجامع
[4] - الإيمان والحياة – يوسف القرضاوي
[5] - نهج البلاغة

* لقد كان هذا حديثًا لابد منه، في مطلع كلامنا عن التزكية وبعض وسائلها، التي يجد العصاة فيها وسيلة وخلاصًا مما تجلبه عليهم معصيتهم من سخط الله والشرود عن ساحته، فلا يظن العصاة في يوم من الأيام أن معصيتهم صارت سدًا منيعًا، وحجابًا حاجزًا بينهم وبين ربهم سبحانه.!

وليعلموا أنها معركة، وخصمهم فيها إبليس اللعين، عدو الانسانية، ومصدر الآثام في الحياة، فليحاربوه بكل قوة، ولينتصروا على إغوائه، فمرة ينتصر عليهم ومرة ينتصرون، حتى يمكن الله لهم منه، ويديم نصرهم عليه، فيصبحون ولا سلطان له عليهم، فتصفوا حياتهم لله، وتخلص نفوسهم لهديه.

الرفق واللين بأصحاب المعاصي

لقد عبنا على دعاة السوء الذين ينظرون للعصاة نظرة كبر واستنكار، ولو أن الأمر بيد أحدهم، لتبرأ من صاحب المعصية وأخرجه من ملة الإسلام، وحكم عليه بالكفر والفجور.!

وهكذا يتجرد من اللين والحلم والرحمة، وهي العناصر الأولى للداعية الحصيف، بل هي السمات التي يدرك بها العصاة، أن دينهم دين الرحمة، وربهم رب المغفرة، وأنه تعالى مهما بلغ عصيانهم وشرودهم، فبابه مفتوح لهم ينتظر من يطرقه.

فالواجب علينا أن نلين للناس وخاصة العصاة منهم، ولا نشتد عليهم أو ننساق في زجرهم أو تقبيحهم، فنسد عليهم باب الأمل في الدعوة إلى الله تعالى، ونقطع عليهم نافذة الرجاء في اللجوء إليه، لقد أوتي بسكران إلى النبي ^ فأمر بضربه يقول أبو هريرة τ:

"فمنَّا مَن يضربه بيده، ومنَّا مَن يضربه بنعله، ومنَّا مَن يضربه بثوبه، فلمَّا انصرف، قال رجلٌ: ما له؟! أخزاه الله! فقال رسول الله ^ لا تكونوا عون الشَّيطان على أخيكم"[1]

ومر أبو الدرداء τ على رجل قد أصاب ذنبًا، وكانوا يسبُّونه؛ فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قَلِيبٍ؛ ألم تكونوا مُسْتَخْرِجِيه؟ قالوا: بلى. قال: فلا تسبُّوا أخاكم،

[1] - رواه البخاري

واحمدوا الله الذي عافاكم. قالوا: أفلا نُبْغِضُه؟ قال: إنما أبْغَضُ عمله، فإذا تركه فهو أخي"[1]

وهكذا يجب أن ننظر لأهل المعاصي، إنهم في بلاء، وفي شر عافانا الله منه، وجنبنا عاقبته، ومن الممكن أن يقع الإنسان فيه في أي وقت مهما كان ذا حظ كبير من الطاعة والإنابة، فإن لحظات الضعف قد يكون تيارها قويًا جارفًا.

* لقد سأل الفاروق τ عن رجل كان قد آخاه ثم خرج إلى الشام فقالوا له: ذاك أخو الشيطان إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر.

فكتب إليه عمر τ:

من عمر بن الخطاب إلى فلان، سلام الله عليك، فإني أحمد إليك الله ، الذي لا إله إلا هو{ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير }

ثم قال لأصحابه :

أدعو الله لأخيكم، أن يقبل على الله بقلبه ، ويتوب الله عليه !! " ...

فلما وصله كتابُ عمر ، جعل يقرأه و يردده في نفسه ويقول:

{غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب}،قد حذرني عقوبته ووعدني مغفرته، فلم يزل يرددها على نفسه ، و هو يبكي ، ثم تاب و حسنت توبته، فلما بلغ عمر خبره ، قال لأصحابه:

(هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخا لكم زل زلة ، فسددوه ، وادعوا الله له أن يتوب ، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه) [2]

لقد كان هناك جار لأبي حنيفة τ كلما دخل بيته جلس يأكل ويشرب الخمر ويتغنى قائلا:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ** ليوم كريهة وسداد ثغر

وينزعج أبو حنيفة بجلبته كل يوم، ففقده أبو حنيفة يومًا فعلم أن الشرطة أخذته، فذهب بنفسه إليه وشفع فيه عند الأمير فأخلى سبيله، وقال: وكل من أخذ في هذه الليلة إكرامًا لأبي حنيفة.

[1] - أسد الغابة
[2] - تفسير ابن كثير

انظر كيف صنع أبو حنيفة τ من الرجل بموقفه؟ لقد حببه للدين والعلم وصيره فقيهًا في الدين، ولو تصرف بطبعه وعلى طريقة الكثيرين لقال: الحمد لله الذي أراحنا منه، فبئس الجار هو، أو قال: لقد عاقبه الله بذنبه، لم يقل شيئًا من هذا لأنه فقيه دعوة قبل أن يكون فقيها في المسائل.

قال تعالى:

" ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ" [1]

فما أشد حكمته ^ وما أجمل موعظته، وكذلك السلف الصالح وعلى رأسهم صحابته الكرام رضي الله تعالى عنهم، فهموا المنهج النبوي وعليه ساروا.

قال تعالى:

" ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون"[2]

يقول شيخنا الدكتور/ محمود محمد عمارة:

"تشير الآية إلى أن معركة الداعية إنما هي مع السية لا مع من أساء، بمعنى أن المخطئ أخوك في الإسلام، لكن نقطة الخلاف بينك وبينه هي العمل السيء نفسه، فإذا تركه، فقد بقي كما هو أخ لك في الدين.

لقد علمنا القرآن الكريم هذه الحقيقية بشأن الطائفتين من المؤمنين يقتتلان، فما زالوا مع الدم المسفوح إخوة، ومازالوا كذلك مؤمنين.

وتأكيد هذه الأخوة إنما هو حرص من الإسلام على أن تظل الإخوة الجامعة، شجرة ظليلة يفئ إلى ظلها المتقاتلون، ليجمعوا الشتيت من جديد، ثم يقول تعالى: " بالتي هي أحس" ولم يقل بالتي أعظم أو أفخم أو أقوم.!

إنما كل إنسان قادر على أن يدفع بالتي هي أحسن، والحسن زينة وجمال.. وربما كان ميسورًا، أكثر من الكمال، وإذن فخذ طريقك إلى العاصي من زاوية الجمال، أولا وضح له ما في العمل الجميل من جاذبية تزري بالعمل الرزيل، وكل إنسان قادر على اكتشاف الفرق بين الجميل والقبيح بالعين المجردة وللوهلة الأولى.

أما منطق الكمال، وإشعار المدعو أن القضية قضية الحلال والحرام، فربما حمله ذلك على النفور من الداعية يريد إحراجه.. بل وإخراجه من ساحة الغفران أحيانا على الأقل"[1]

---

[1] - النحل: 152
[2] - المؤمنون :96

ونؤكد هنا

أن النصيحة وتقويم الخطأ لا سبيل له إلا الرفق واللين، لا حظ له في التجريح والتعنيف، فعلى الداعية أن يسدي نصيحته سرًا، فلا يعيب عاصيًا أمام ملأ من الناس، بحجة نصحه وإرشاده، فيولد فيه حدة وكبرًا عن سماع الحقً، ونفورا من النصيحة التي أحرجته.

لقد رفض الشافعي رحمه الله تعالى نصيحة تُسدي إليه أمام الناس وردها على صاحبها إذ قال:

تعمدني بنصحك في انفرادي = وجنبني النصيحة في الجماعة

فإن النصح بين الناس نوع = من التوبيخ لا أرضى استماعه

وإن خالفتني وعصيت قولي = فلا تجزع إذا لم تعط طاعه.

[1] - الدعوة بين كيد الطغاة وحكمة الدعاة. د. محمود محمد عمارة

الفصل الثاني

من وسائل التزكية

وتقرأ فيها

- اللقاءات الإيمانية
- الصحبة الصالحة
- أداء الفرائض والنوافل
- الإنفاق في سبيل الله
- قراءة القرآن وتدبره
- ذكر الجنة والنار
- ذكر الموت

أداء الفرائض والنوافل

الفرائض

وهي ما جعل الله تعالى فعلها واجبًا، وتركها إثمًا وذنبًا، ولا يجوز تركها والانشغال بما هو دونها كالنوافل، لأنها أركان الدين وأسس الإسلام، وأحب الأشياء التي يتقرب بها العبد إلى ربه.

يقول تعالى في الحديث القدسي:

"من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه.."[1]

إن الإنسان في زحمة الحياة، وقد استجابت نفسه لكل غرائزها، وكادت أن تسقط، وكادت أن يسيطر عليها حب الدنيا بعد أن أغرقها في شؤونها ومعاشها، فجأة إذا بنداء الحق سبحانه يخرق الأسماع:

الله أكبر.. الله أكبر

ليذكر النفس بما كادت أن تنسى، ويهدئ الروح بعد أن شابها الغليان المستعر في صراعها مع المادة الفانية، وهذا شأن كل فرائض الدين، وليس مقتصرًا على الصلاة وحدها، ولكنها أعظم أثرًا، لأنها دائمة متكررة.

لقد استطاع الإسلام بالفرائض أن يحاصر النفس، أو قل يصاحبها على طول الطريق، لا يتركها لحظة، فكانت هذه الفرائض بمثابة المسكنات، تهدئ النفس وتخمد جذوة الشر فيها.

بل هي كالمحطات المتكررة التي يقف فيها قطار النفس ليشحن بالروحانية، فيستأنف سيره من جديد، إلى الأمام مندفعًا، فكلما أرادت النفس أن تجنح للهوى، ذكرها وهدهد من شرها، تماما كالطبيب الحاذق الذي يملك الدواء لكل الأدواء، كلما ظهر داء داواه بما يمحوه، ودواء الإسلام للنفوس هو الروحانية، وأعظم طرق الروحانية وأبلغها أثرًا، هو أداء الفرائض المقررة.

يقول شيخنا القرضاوي:

" تُعد الفرائض من أعظم الوسائل التربوية لتكوين الأنفس المؤمنة، والأخلاق الفاضلة، مع أنها غاية في نفسها"[2]

ويقول شيخنا الغزالي:

[1] - رواه البخاري
[2] - حتمية الحل الإسلامي

" هي تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة، وأن يظل مستمسكا بهذه الأخلاق مهما تغيرت أمامه الظروف، وإنها أشبه بالتمارين الرياضة التي يقبل عليها الإنسان بشغف متلمسًا من المداومة عليها عافية البدن وسلامة الحياة"[1]

وإذا كان هذا أثر الفرائض على النفس، فإننا لا نبالغ أو نتجاوز إذا قلنا: إن للفرائض أثر كبير في صياغة المجتمع المسلم ونهوضه وقوته، بل كانت هي الجسر الذي عبر عليه المسلمون قديمًا ليكونوا أعظم أمة عرفها التاريخ.

ونحكي هنا محادثة جرت بين الفيلسوف الكبير محمد فريد وجدي وبين أحد رجالات القلم من غير المسلمين، ممن تؤديهم بحوثهم إلى تناول الكلام عن الإسلام، لنبين أثر الفرائض على المسلمين الأولين حيث زكت نفوسهم فباعوها لله تعالى.

يقول: " فلما أخذ كل منا مجلسه، نظر إلي وخصني بكلمات من الثناء شكرته عليها، ثم قال: لقد كنت أرجو أن يضمني وإياك مجلس، فأطرح عليك سؤالا أطلت البحث في جوابه حتى اهتديت إليه، وأحب أن أرى رأيك فيه.

فقلت له: ما هذا السؤال؟ فقال: بم تعلل سرعة قيام المسلمين، وانسياحهم في الأرض، وتأسيسهم لدولة فاقت الرومانيين في الاتساع وبسطة السلطان، مما حير عقول الباحثين ولم يجدوا تعليلا يقبله العلم الاجتماعي وتسيغه فلسفة التاريخ؟ فقلت له: أتحفني بالجواب الذي وفقت إليه لأرى رأيي فيه أولا.

فقال:

إني أرى أن علة هذه السرعة كانت من شدة تماسكهم، وقوة ترابطهم، حتى أصبحوا على كثرة عددهم كالجسد الواحد تديره إدارة واحدة ويدبر حركته عقل واحد.

قلت: أحسنت في وجدان العلة، فإنه جدير بأمة تصبح كالجسد الواحد، أن تأتي بالآيات في التوسع وبناء صروح المجد، ولكن فاتك أمر جلل هو، أن تفسير كيف حدث هذا الترابط والتماسك الذي لم يكن مثله لأمة قبلهم وقد كانوا في أمسهم مثلا يضرب في تفرق الكلمة، وفي التحاقد الذي كان كثيرًا ما يحملهم على التناحر، فإن انقلاب جماعات كانت بالأمس على شر حال من التنابذ والتكافح إلى جماعة واحدة متحدة المبدأ والغاية، تضطلع بمهمة اجتماعية كالتي اضطلع بها المسلمون الأولون، وتنجح في أدائها رغمًا عن جميع العقبات التي صادفتها، والقواطع التي قابلتها.

قلنا: إن مثل هذا الانقلاب المحير للعقل يعوز تفسيرًا، إذ ليس هو الأمر العرضي، ولا السبب الثانوي، ولكنه الأصل الأصيل في إحداث ذلك التماسك الذي أدهشكم من

[1] - خلق المسلم

آثاره ما أدهشكم، وإذا كان أثر هذا التماسك بين آحاد الأمم، فما الذي يمنعها أن تأخذ به لتصل إلى أقصى غايات الاجتماع من أقرب الطرق إليها، ويمثل السرعة التي أدت بالمسلمين إليها؟

فسكت مخاطبي قليلا ثم قال لي:

وما سر ترابط المسلمين هذا الترابط المتين في نظرك؟

قلت: إن سره في نظري يرجع إلى الحكمة التي بنيت عليها عباداتهم، فقد كتب على المسلمين صلاة وصوم وزكاة وحج.

فالصلاة: عمل تشترك في أدائها الجوارح والقلب معًا، وقد روعي في حركتها الجسدية أن تمثل الإنسان واقفا أمام خالقه خاشعا مستسلما قارئا، فإذا أتم قراءته ركع خاضعًا ثم قام وخر ساجدًا، واضعًا جبهته على الأرض، وهو غاية ما يستطيع الإنسان أن يظهره من دلائل الطاعة والعبودية لقيوم السماوات والأرض ، أما عمل القلب فقد أُمر الإنسان أن يتجرد فيه من جميع علائقه بالدنيا، وأن يثير في نفسه شعورًا قويًا بصلته بخالقه.

فيطلب إليه أول ما يدخل في الصلاة أن يقول: الله أكبر قاصدًا بذلك محق جميع الأغيار، والتحلل من كل الأفكار، مطرحًا كل هوى وكل خاطر، حاصرًا جميع قواه الروحية في مبدعه الحكيم، الذي لا يحصره وصف ولا يحده زمان.

فإذا تم له هذا التجرد بدأ يتلو أم الكتاب، ويعقبها بما تيسر من السور أو الآيات، فهذا العمل القلبي إذا أدي على ما ينبغي، رفع نفسية الإنسان مالا ترفعه دراسة الفلسفة سنين، وهذب من شعوره، ولطف من إنسانيته، وأزال من أدواء نفسه، مالا تستطيعه العلوم مجتمعة.

والصوم: إمساك عن الأكل والشرب لساعات معدودة، يقضيها المسلم في فكر أو ذكر أو عمل، بعيدًا عن المشاغبات والمعاكسات، تفرغ فيها النفس لذاتها تحت جو من التجرد صالح لإبراز أقصى مكنوناتها من القوى المعنوية، والأنوار القدسية.

والزكاة: مران إجباري للنفس على أن تفكر في حاجات غيرها، وتسد مفاقر إخوانها، وإخضاع للغني بسلطان الشريعة على أداء حق المجتمع من المال الذي اجتمع لديه، باعتبار أنه عضو في هذا المجتمع، لا حياة له إلا بحياة الجميع وسلامتهم.

والحج: رمز عملي لوحدة الوجهة ووحدة الغاية، وإشعار الناس كافة بأنهم إخوان في الله، وإن فرقت بينهم المناسب، وباينت بينهم المناصب، وأنهم وهم محرومون في صعيد واحد، إخوانا متحابين أمام معبود واحد، لا ينظر إلى صورهم ولا إلى أموالهم، ولكن ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم.

إن هذه العبادات كلها تتكافل في إعداد النفوس إلى كمالها، باستثارة القوى المعنوية الكامنة فيها، فما الذي يمنع هذه النفوس من التحاب والترابط، وجمعها قد خلص من إسار الأوهام، وأفلت من سلطان الأهواء ، وتطهر من الأدران والأدواء؟

وكيف لا يكون الترابط بينها على أقوى ما يتخيل وقد سلمت من جميع العلل المفرقة؟

قلت لمحدثي كل هذا، فأظهر إعجابه به"

هكذا كانت الفرائض في حياة المسلمين.

قوة روحية دفعتهم لقيادة العالم، وصيرت أمتهم أعز الأمم و أقواها.. هذا في الحياة الدنيا، فهل ذهب أثرها، وزالت بركتها بعد موت صاحبها؟

لقد جاءت الأخبار بأن الفرائض هي حائط الصد، وقوة الدفاع التي تحمي المسلم وتمنع عنه عذاب القبر.

قال كعب τ: "إذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة. قال: فتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة: إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه، فقد أطال بي القيام لله، فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله في الدار الدنيا فلا سبيل لكم عليه، فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد: إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه. قال : فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة: كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه، فلا سبيل لكم عليه. قال: فيقال له: هنيئا طبت حيًا وطبت ميتًا. قال: وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشًا من الجنة ودثارًا من الجنة، ويفسح له في قبره مد بصره، ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره"[1]

[1] - أخرجه ابن أبي الدنيا – انظر شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي

النوافل

وهي كما قيل عنها: دليل شغف العبد بدوام الاتصال بالله سبحانه.. فتراه لا يكتفي بالفرائض، بل يحرص على زيادة القرب، ويستغرق فيها حتى يصير من الربانيين، قال تعالى في الحديث القدسي:

"وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه "[1]

والفرق بين النوافل والفرائض، أن الفرائض أمر واجب عليك وتأثم بتركه، وتتساوى فيه كأي مسلم يؤدي فرض الله تعالى، أما النوافل فليست واجبة، ولا تأثم بتركها، ولكن الله جعلها لمن أراد التقرب منه.

وليس القيام بها باستطاعة كل مسلم، وإن كان، فإنه يتفاوت من شخص لآخر، فلا يكثر منها إلا الراغبين في ربهم، الطامعين في محبته ورضوانه.

قال الشوكاني رحمه الله:

"إن العبد لما كان معتقدًا لوجوب الفرائض عليه، وأنه أمر حتم يعاقب على تركها، كان ذلك بمجرده حاملا له على المحافظة عليها والقيام بها، فهو يأتي بها بالإيجاب الشرعي والعزيمة الدينية، أما النوافل فهو يعلم أنه لا عقاب في تركها، فإذا فعلها كان ذلك لمجرد التقرب إلى أرب خاليا عن حتم، عاطلا عن حزم، فجوزي على ذلك بمحبة الله له، وإن كان أجر الفرض أكثر، فلا ينافي أن تكون المجازاة بما كان الحامل عليه هو محبة التقرب إلى الله أن يحب الله فاعله لأنه فعل ما لم يوجبه الله عليه، ولا عزم عليه بأن يفعله.

ومثال هذا في الأحوال المشاهدة في بني آدم

أن السيد إذا أمر عبده بأن يقضي له في كل يوم حاجة أو حوائج، وكذلك أمر من له من المماليك بمثل ذلك فكان أحدهم يقضي له تلك الحوائج ثم يقضي له حوائج أخرى يعلم أن سيده يحب قضاءها، وتحسن لديه.. والآخرون لا يقضون له إلا تلك الحوائج التي أمرهم السيد بها، فمعلوم أن ذلك العبد الذي صار يأتي له كل يوم بما أمره به وبغيره مما يحبه، يستحق المحبة من السيد محبة زائدة على [محبته] لكل واحد منهم، فالمراد من الحديث هذه المحبة الزائدة الحاصلة من فعله لما يحبه سيده من

[1] - رواه البخاري

غير أمر منه له مع قيامه بما قام به غيره من امتثال أمر السيد والتبرع بالزيادة التي لم يأمره بها."[1]

وإذا كانت الفرائض معلومة محصورة ، فإن النوافل خلاف ذلك فهي كثيرة وعديدة، وفي كل لون من ألوان العبادة ونذكر بعضا منها في إيجاز شديد.

نوافل الصلاة:

وهي راوتب الفرائض المؤكدة في استحبابها، وهي كما في الصحيحين وغيرهما من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال:

"حفظت عن رسول الله ^ ركعتين قبل الظهر، وركعتين بعد الظهر، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل الغداة"[2]

ومن فضائلها قال ^:

"من صلى في يوم وليلة اثنتي عشرة ركعة سوى المكتوبة بني له بيت في الجنة "[3]

وهذه النوافل التي تسبق الصلاة وتعقبها، بقدر ما هي قربة عظيمة لله تعالى، بقدر ما فيها من الحكمة العظيمة.

قال ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى: "في تقديم النوافل عن الفرائض وتأخيرها عنها معنى لطيفٌ مُناسبٌ، أمَّا في التقديم: فلأنَّ النفوس لاشتغالها بأسباب الدنيا بعيدة عن حالة الخشوع والحُضور في الصلاة التي هي رُوحُ العبادة، فإذا قُدِّمت النَّوافل علة الفرائض أَنِست النفس بالعبادة وتَكَيَّفَتْ بحالةٍ تُقَرِّبُ من الخشوع. وأمَّا تأخيرها فقد وَرَدَ أن النَّوافل جَابرةٌ لنقص الفرائض، فإذا وقعَ الفرضُ ناسب أن يقع بَعْدَهُ ما يَجْبُرُ الخلل الذي يقع فيه."[4]

قيام الليل:

قال تعالى مشيدًا بفضل قيام الليل، ومثنيًا على القائمين، ومبشرًا إياهم بالجنة والنعيم المقيم:

---

[1] - الشوكاني في قطر الولي
[2] - رواه البخاري ومسلم
[3] - رواه مسلم وأبو داود
[4] - حاشية الدسوقي على الشرح الكبير

"إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ"[1]

وقال تعالى:

"أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ"[2]

"والمعنى.. هل يستوي أولئك القائمون الساجدون آناء الليل، والغافلون المعرضون عن ذكر الله تعالى؟! إنهم لا يستوون، لا في العقل ولا في الفضل"

ورغب رسول الله ^ في قيام الليل وذم النوام، الذي يحرم نفسه من هذه النافلة العظيمة التي لفت إليها القرآن الكريم.

فعن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ^ :

"عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالين قبلكم، ومقربة لكم إلى ربكم ، ومكفرة للسيئات ، ومنهاة عن الإثم، ومطردة للداء عن الجسد"[3]

ومن هديه ^ ونصائحه لأمته:

" أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام"[4]

وفوق كونه تزكية للنفس، وقرب بها من الله تعالى، فإنه كذلك قوة للجسد وعافية للبدن.

ففي الحديث السابق أخبر عن قيام الليل بأنه مطردة للداء عن الجسد، فأي خسارة يجنيها المسلم بتركه لهذه النافلة العظيمة..

إنه الليل الذي تتنزل فيه الرحمات، وتمنح فيه البركات والهبات، وتغفر فيه الزلات.

عن أبي هريرة τ أن رسول الله ^ قال:

---

[1] - الذاريات: 15-18
[2] - الزمر : 9
[3] - رواه الطبراني والبيهقي بإسناد حسن
[4] - رواه الحاكم والترمذي

" ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له، حتى ينفجر الفجر"[1]

فكيف ننام عن نداء الله ،

ونغفل عن دعوته بالمغفرة؟!

والله إنها لغفلة وسكرة.

لقد كان سلفنا ينتظرون الليل بشغف، ليقف أحدهم بين يدي ربه خاشعًا ضارعًا يقيم الصلاة بالسور الطوال أو القرآن الكريم كله، لقد كانوا يستعذبونه ويجدون فيه متعتهم ونهمهم.

"الليل وقت الخلوة والجلوة، وقت الأُنس والسمر، وقت الذكر والصفاء، وقت التجلي والتحلي، وقت الشوق والأنين والحنين، والومضات والوثبات واللمحات.

ورجال الأنفاس هم رجال الليل، يضيئون ظلمته بنور الإيمان، ويملئون صمتَه بدعوات الرحمن، حتى إذا جاء وقت السَّحَر، وما أدراك ما وقت السحر؟! تجلَّت الأرواح واستيقظت القلوب؛ فتلقَّتْ من ربها ما تلقت، وتجمَّلت وتحلَّت، وأذنتْ لربها وحُقَّتْ؛ فلكلٍّ نصيبه الْمُقَدَّر، على قدر الهمة والطاقة، وعلى قدر الذكر والعبادة.

ولليل عند رجال الله مقام أيُّ مقام! لأنهم نظروا إلى آيات الرضا، فوجدوا ثناء من الخالق ـــ سبحانه ـــ على الأصفياء الأخيار، الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع، والذين كانوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، فأقبلوا على الليل يقطعونه راكضين إلى ربهم، مهلِّلين ومكبرين.

يقول ابن عربي: «كان عندنا بإشبيلية رجل عابد حسن الصوت، كثير الاجتهاد، سريع الدمعة، دائم العبرة، كثير التفكر والتهجد، بِتُّ معه ليالي عدة؛ فلم يكن يفتر، فربما أَسمَعُه بعض الأحايين يُنشِد بصوتٍ طيب غَرِد، ودموعه تنحدر على خديه ويقول:

قطعَ الليلَ رجالٌ ورجال وَصَلُوه

فيه أناس رَقَدوا وأناس سَهِرُوه

لا يميلون إلى النَّوْ مِ ولا يستعذِبوه

[1] - رواه الجماعة

فكأن النوم شيء لم يكونوا يعرفوه

لبسوا ثوبًا من الخِد مة حتى خَلَعوه

مع جلباب من الحُزْ نِ فما أن نزعوه"[1]

التنفل بالصيام:

لقد وردت أحاديث كثيرة تحث على صيام أيام معلومة وتبين فضل صيامها، كيوم عرفة ويوم عاشوراء وصيام ست من شوال وصوم شعبان وصوم شهر المحرم، ثم يأتي الحديث عن مطلق التنفل بالصيام، حيث قال ^:

" من صام يوما في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفا"[2]

نوافل الحج والعمرة:

قال ^ :

" العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة"[3]

وقال ^ :

"من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه"[4]

نوافل الصدقة :

قال تعالى:

" وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ"[5]

وقال تعالى :

" يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ أن تَبْذُلَ الفَضْلَ خَيرٌ لَكَ، وأن تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلا تُلامُ عَلى كَفَافٍ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، واليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى"[6]

وعن أبي هريرة τ قال: قال رسول الله ^:

---

[1] - محيي الدين بن عربي- طه عبد الباقي سرور
[2] - رواه البخاري
[3] - أخرجه البخاري
[4] - متفق عليه
[5] - سبأ:39
[6] - صحيح رواه مسلم

" ما من يومٍ يُصبحُ العبادُ فيه إلا وملَكانِ ينزلانِ ، فيقولُ أحدُهما : اللهمَّ أعطِ مُنفقًا خلفًا ، ويقولُ الآخرُ : اللهمَّ أعطِ مُمْسكًا تَلفًا"[1]

نوافل الأذكار:

قال تعالى:

" ولذكر الله أكبر"[2]

وقال تعالى :

" فاذكروني أذكركم"[3]

وقال تعالى:

" واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون"[4]

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي موسى الأشعري τ:

" مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت"[5]

ولم لا يكون ذكر الله بهذه المكانة العظيمة، وهو العلاقة على يقظة القلب وتعلقه بخالقه، بل هو الإعلان عن رفض كل ما يشغل القلب والعقل عما سوى الله تعالى من مباهج الدنيا وملهياتها، وإيثار الأنس بالله وذكره والرغبة فيه، ومن هنا جعل الذكر من أعظم الطرق إلى الله، ومن أوسعها إليه سبحانه.

بل جعله البعض شارة الأولياء وحلية الأصفياء فقال:

"الذكر منشور الولاية

ولابد منه في البداية والنهاية

وهو يُثمر أحوالاً شريفة

ومقامات عالية منيفة

وعلوماً لطيفة

---

[1] - رواه مسلم والترمذي
[2] - العنكبوت: 45
[3] - البقرة: 152
[4] - الجمعة: 10
[5] - متفق عليه

ويحيي عوالم طالما كانت قَبْلُ مواتاً

ويُلبِسُ النفسَ وجنودَها ذلة وسُبَاتاً"

وقال أحدهم:

والذكر منشور الولاية، ولابد منه في البداية والنهاية، فمن أعطي الذكر فقد أعطي المنشور، ومن منع الذكر فقد حرم

وأنشدوا:

والذكر أعظم باب أنت داخله ** لله فاجعل له الأنفاس حراسًا

وقال ابن القيم رحمه الله:

"الذكر منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب القوم التي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورا، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورًا، وهو سلاحهم الذي به يقاتلون قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست فيهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ** فنترك الذكر أحيانا فننتكس

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكُربات، وتهون عليهم المصيبات، إذا أصابهم البلاء فهو ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم.. في كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة، والذكر عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة. بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم على كل حال: قياما وقعودا وعلى جنوبهم. فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها، فكذلك القلوب بور خراب وهو عمارتها وأساسها، وهو جلاء القلوب ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما زاد الذاكر في الذكر استغراقًا زاد المذكور محبة إلى لقائه اشتياقا"[1]

وما أعظم ما قال القائل:

"ذكر الله هو طِبِّ الْقُلُوْبِ وَدَوَائِهَا، وَعَافِيَةِ الْأَبْدَانِ وَشِفَائِهَا، به تطمئن القلوب وتنفرج الكروب، وتغسل المعاصي والذنوب"

[1] - مدارج السالكين لابن القيم

الإنفاق في سبيل الله

لما صكت الدراهم صاح إبليس صيحة الفرح، وقال لأتباعه: الآن وجدت ما أستغني به عنكم، إنه المال الذي يفرق بين الابن وأبيه والأخ وأخيه.

إلى هذا الحد الكبير، كان المال سبيلا من سبل الإغراء والإغواء، بل سلاحًا من أقوى أسلحة الشيطان، ولم لا وهو الذي يغير النفوس، ويوغر الصدور، بل هو الذي إن تعلقت به النفس، جردها من كل قيمة، ومحى عنها كل فضيلة، لتصير نفسا بهيمية، أبعد ما تكون عن الكمال، فتملأ جوانحها بالأنانية وحب الذات، فلا تبالي بالمنكوبين والمحتاجين، والمرضى والمتألمين، بل يجذبها تياره، لتصل إلى درجة منكرة، فلا تبالي من أي طريق جاء هذا المال.

أمن الحلال أمن الحرام؟

وصدق الله تعالى في قوله:

" وتحبون المال حبا جما"[1]

ومن هنا جاء الإسلام ليطهر المسلم من هذه الشهوة، فدعاه للإنفاق في سبيل الله، وأمره أن لا تصبح الدنيا أكبر همه، وأن لا يكون المال غايته وهدفه، بل بين فوق هذا الأمر، أن الإنفاق في سبيل الله، من أعظم المراتب عنده سبحانه وتعالى، إذ قرنه بالصلاة، التي هي أعظم فرائض الإسلام، قال تعالى:

"قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ "[2]

وقال تعالى:

"الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ"[3]

ثم يقول تعالى في وصف المؤمنين:

" الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون"[4]

وقال أيضًا:

---

[1] - الفجر: 20
[2] - إبراهيم: 31
[3] - البقرة: 274
[4] - الأنفال: 3

" الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ "[1]

ثم كان ندائه في أكثر من موضع من القرآن الكريم، يأمر ويحث على الإنفاق وبذل المال في سبيله.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ "[2]

ويقول تعالى:

"وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ"[3]

فالإنفاق في سبيل الله..

لا يقتصر على إخراج المال للفقير، بل كل ما يخرج في سبيل الله ونصرة الدين، كأن توفر العدة لمن يقاتل في سبيل الله، أو أن تنفقه في أي ضرب من الضروب التي تساهم في نشر الدعوة والتمكين لكلمة الإسلام، أو أن تنفقه على طلبة العلم، الذين يحصلون علوم الدين ليملأوا المجتمع نورًا ومعرفة بالله وبدينه.

كل هذه الأمور وغيرها، تعد من مجالات الإنفاق في سبيل الله، فهل لك في مجال منها حظ أو نصيب؟

فقد ضرب السلف الصالح، من صحابة النبي ^ المثل الأعلى في الانفاق في سبيل الله إذ كانوا يعدونه بابًا من أبواب الخير، يتسابقون فيه ويتنافسون، كما حدث بين أبي بكر وعمر حينما ظن عمر أنه سابق أبا بكر الذي تبرع بماله كله، حينما سأله ماذا أبقيت لأهل بيتك يا أبا بكر؟

فكان قوله الذي ظل مضرب الأمثال وأغنية الأجيال:

أبقيت لهم الله ورسوله.

وكيف يكون المسلم اليوم مسلما، وهو يرى أن دينه ودعوته في أمس الحاجة إلى المال والدعم المادي، ثم يضن بها ويبخل؟!

كيف تكون نفسه، وكيف يكون إيمانه؟!

[1] - البقرة: 3
[2] - البقرة: 254
[3] - المنافقون: 10

ومن العجيب أنه من أجل شهوة أو نزوة من نزوات النفس، قد ينفق لها الألوف المؤلفة.

قال الشيخ الغزالي رحمه الله:

"إنه ليحز في النفس، أن يكون لدينا أغنياء يبذلون الألوف المؤلفة في إشباع الشهوات، وتجف أصابعهم عن بذل شيء في حماية الأرض والعرض والإيمان والشرف"[1]

أفلا يكون هذا المسلم وأمثاله كبني إسرائيل الذين وهبوا حليهم وثروتهم، من أجل عقيدة العجل الباطلة، وهم كما وصف القرآن الكريم، كانوا أحرص الناس على حياة، لقد أنفقوا ثرواتهم ولم يبخلوا بها، حينما دعاهم السامري إلى ذلك، أنفقوها من أجل إلهٍ باطل، ودين وثني فاسد، وعبدوا العجل وسجدوا له خاضعين.. عبدوه من دول الله، وهو الذي نجاهم من بطش فرعون، وأنقذهم من بين أنياب غدره، فكان من رد الجميل والشكر أن أظهروا وثنيتهم دون حياء، وأعلنوا كفرهم بكل النعم والخصائص، التي منحها الله لهم، وخشعوا للصنم، وأنشدوا ترانيهم الوثنية، فقال قائلهم:

هذا إلهنا الذي يشاهدون ونشهده

إله إسرائيل من صافي النضار جسده

خير إله نعبده يرفدنا ونرفده

إذا نما به سؤددنا وسؤدده

لا كالذي ينشده موسى وليس يجده

يا ويح موسى إنه غوى وضل رشده

إله إسرائيل بيننا وموسى يجحده

ينشده بين الجبال ضل به ما ينشده

لعله يرى هناك جلمدا فيعبده

شتان بين شرع الحجى مسجدنا وجلمده[2]

[1] - أزمة الشورى –الشيخ محمد الغزالي

[2] -إله إسرائيل- أحمد علي باكثير

أفلا يليق بك أيها المسلم

أن تكون أحرص الناس على تزكية نفسك، فتنفق مالك من أجل الدين، دين الصدق ودعوة الحق، انظر للحق سبحانه وتعالى يعرض بأولئك الذين يمنعون المال، وكيف أنه يضعهم في مصاف المشركين المكذبين.؟

قال تعالى:

"خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ،إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ"[1]

وقال تعالى:

" أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ، فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ"[2]

إنها آيات تقرر

"أن الذي يزجر اليتيم وينهره، ويهمل المسكين الذي أذلته الحاجة، وعضه الفقر والبؤس، هو إنسان كافر مكذب بلقاء الله وحسابه وجزائه.. ولو آمن بالله وجزائه وكتابه، لاندفع بقلب ملئ بالرحمة حريص على النجاة من عذاب الله وغضبه، فأكرم اليتيم وأعطى المحتاج مما أنعم الله به عليه."[3]

---

[1] - الحاقة:30-34

[2] - سورة الماعون

[3] - السلوك الاجتماعي – الشيخ حسن أيوب

قراءة القرآن وتدبره

لماذا أنزل الله تعالى القرآن؟

* هل أنزله ليكون حكرا على المآتم والقبور؟

* هل أنزله لنفتتح به المجالس والمحافل؟

* هل أنزله ليكون حجابا يقي المصابين والمبتلين؟

* هل أنزله لنتجمل بآياته ونزين بها الحوائط والجدران؟

لماذا إذا أنزل الله القرآن؟

يقول شيخنا محمد الغزالي رحمة الله عليه:

" إلى متى يظل القرآن الكريم كتاب الموتى، يستمع الناس إليه في محافل الحزن لا في مجامع العلم والحكم، لماذا تلقى محمد هذا الكتاب؟"

يقول تعالى:

" كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ"[1]

"لقد أنزل الله تعالى هذا الكتاب ليكون كتاب حكم ودولة، كما أنزله كتاب هدى وبركة، أنزله ليعمل بقوله، كما يتلى، هذا مفهوم القرآن ووظيفته بين المسلمين، إن أولى الخطوات التي يجب أن نخطوها لتعود للقرآن وظيفته ودوره الذي غاب، أن ندرك عظمته وجلال شأنه، وأن نتطلع إليه بأفئدتنا وعقولنا متأملين متدبرين، ولا نسمح بأن تمر جملة منه على ألسنتنا مرور السهم من الرمية، دون أن تأخذ حظها من الفكر والتأمل"[2]

القرآن دليل الحائرين

يقول تعالى :

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ"[3]

موعظة وشفاء وهدى ورحمة.. هكذا جعل الله القرآن، دواء وشفاء من كل علة مزرية، أو هوى مستحكم، أو ضلالة مهلكة.

القرآن هو عين التزكية وأصل الدواء، وأفضل الأذكار، من لزمه قوي على الشيطان، ومن صحبه حفظ من الغواية، به يعمر القلب وتزكو النفس، وتحضر العاطفة، ويخشع الوجدان، ويعظم الإيمان ويشتد اليقين.

تحدى الله به أعداءه، ونصر به أولياءه، جمع الله فيه بين المعجزة والموعظة، والحوار والتحدي، ألهب الله به عاطفة المؤمنين، وزلزل به نفوس الكافرين، فمنهم من هد ومنهم من حقت عليه الضلالة.

سمعه الوليد بن المغيرة فقال:

والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة

---

[1] - إبراهيم: 1
[2] - ركائز الايمان بين العقل والقلب – الشيخ الغزالي
[3] - يونس: 57

وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق

وإنه ليعلوا ولا يعلى عليه.

وسمعه عتبة بن ربيعة فقال:

والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط

والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة.

وسمعه النجاشي فاهتز فؤاده، ومكن للمسلمين في بلاده، ثم قال:

"إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة"

وسمعه عمر بن الخطاب τ قبل إيمانه، فدق قلبه، ولان طبعه، وهدأت فيه ثورة الباطل، ثم قال:

ما أحسن هذا الكلام وأكرمه؟ دلوني على محمد.

هذا هو القرآن، وسر بيانه، وهذا حال من أشرق عليهم بنوره، لقد أراد الله تعالى، أن يبين عظمة هذا القرآن، فكان وصفه القدسي لكتابه.

قال تعالى:

" إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ "[1]

وقال أيضًا:

"اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ"[2]

وقال أيضًا:

" مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ "[3]

وقال على لسان الجن حينما أدركوا حقيقة القرآن:

" إنا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ"[4]

---

[1] - الواقعة: 77-78-79
[2] - الزمر: 23
[3] - النعام 38
[4] - الجن 1-2

ثم نأتي إلى الرسول ^ وهو يحث على قراءة القرآن وتعهد صحبته، والإعلام بأنه الشفاء من الداء، والعصمة من الزلل.

قال ^ :

" إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول الم حرف ولكن ألف ولام وميم " [1]

وقال ^:

" يقال لقارئ القرآن : اقرأ ورتل وارتق كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها"[2]

وقال ^:

(من قرأ في ليلة خمسين آية لم يكتب من الغافلين)[3]

وعن الحسن أن نبي الله ^ قال :

" من قرأ في ليلة مائة آية لم يحاجه القرآن تلك الليلة، ومن قرأ في ليلة مائتي آية كتب له قنوت ليلة، ومن قرأ في ليلة خمسمائة آية إلى الألف أصبح وله قنطار في الآخرة ". قالوا : وما القنطار ؟ قال : " اثنا عشر ألفا "

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يَضِلَّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.

ثم قرأ قوله تعالى:

"فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى"[4]

وقد جعل الله تعالى أهل القرآن هم أهله وخاصته إذ قال ^:

---

[1] - المستدرك على الصحيحين
[2] - رواه ابن ماجة
[3] - رواه الدارمي في سننه، قال الشيخ حسين أسد: إسناده صحيح.
[4] - طه: 123-124-125-126

(إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنْ النَّاسِ) قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَنْ هُمْ ؟ قَالَ :

(هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ ، أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ)

قال المناوي رحمه الله:

"أي حفظة القرآن العاملون به هم أولياء الله المختصون به اختصاص أهل الإنسان به، سموا بذلك تعظيما لهم كما يقال : "بيت الله" .

وقال الحكيم الترمذي: "وإنما يكون هذا في قارئ انتفى عنه جور قلبه وذهبت جناية نفسه ، وليس من أهله إلا من تطهر من الذنوب ظاهرا وباطنا ، وتزين بالطاعة ، فعندها يكون من أهل الله "[1]

وكفى بهذا جزاء وحسابًا للمؤمنين الموصولين بالقرآن، أن يكونوا من أهله وخاصته، وإذا كان للقرآن أثر ملموس في نفوس أصحابه في الدنيا، من تزكية النفس، وحضور العاطفة الإيمانية، فإن أثرها عليهم في الآخرة أعظم، إذ جاء أن القرآن لم يترك أصحابه هملا يعانون من هول المشهد الأخروي، وما فيه من فزع وذعر، يجعل الولدان شيبًا، إذ به يسدد خطاهم، ويشد من أزرهم، ويقف بجوارهم، حيث لا نجاة ولا فوز إلا لمن أتى الله بقلب سليم.

روي:

" إن القرآن يأتي أهله يوم القيامة أحوج ما كانوا إليه ، فيقول للمسلم : تعرفني؟ فيقول : من أنت ؟ فيقول: أنا الذي كنت تحب ، وتكره أن يفارقك الذي كان يسحبك ، ويدنيك . فيقول : لعلك القرآن . فيقدم به على ربه - عز وجل - فيعطى الملك بيمينه ، والخلد بشماله ، ويوضع على رأسه السكينة ، وينشر على أبويه حلتان لا تقوم لهما الدنيا ، أضعافا ، فيقولان : لأي شيء كسينا هذا ولم تبلغه أعمالنا ؟ فيقول: هذا بأخذ ولدكما القرآن "[2]

هجر القرآن

بعد هذا البيان الناصع والذي تجلت فيه مكانة القرآن وعظيم أثره وثوابه، على أصحابه والعاملين به، أيليق بنا بعد هذا البيان الصادح أن نهجر القرآن، ونكون ممن قال الله تعالى فيهم:

[1] - فيض القدير للمناوي

[2] - رواه الطبراني ، وفيه سويد بن عبد العزيز ، وهو متروك ، وأثنى عليه هشيم خيرا ، وبقية رجاله ثقات

" وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا "[1]

أيليق بنا أن نكون في واد والقرآن في واد آخر، وقد جعل الله فيه هدايتنا وعزتنا؟!

هل نتعامل اليوم مع القرآن كما كان السلف الصالح يتعاملون معه؟

يقول شيخنا الدكتور محمود عمارة:

" لقد كان المسلم القديم مع القرآن كأنه بيته العامر، آمنا له في سربه، معافا له في بدنه، ميسرا له في رزقه، ولكنه اليوم أدار ظهره للقرآن ، فخرج من بيت العزة إلى حيث قيدته من الدنيا أغلال، ومن النفس أطماع

لقد خرج المسلمون اليوم من بيتهم القرآن الكريم، وهجروه إلى غيره، فتحاكموا إلى قوانين الأرض، فتحكمت فيهم تقاليد غريبة عنه وعنهم، وتفشت فيهم العلل ولو صحا فيهم الضمير اليوم فعرضوا أنفسهم على مرآة القرآن، فماذا يجدون؟!

تغيرت الملامح، بل تغيرت الوجهة، وازدادت مسافة الخلف، وأصيبت مطية العمر بالهزال، وأصبحت ذيولا للأمم ، ونحن مطالبون أن نجدد حياتنا بالعودة إلى رياضه اليانعة، وإلى قيمه الجليلة.

ساعتها..

تعلو رايتنا وتعز شوكتنا، ويمكن لدولتنا)[2]

إن القرآن وحدة متكاملة، لا يجوز أن تحكم ببعضه وتترك البعض الآخر، ولا يجوز أن تأخذ منه هديا وتغفل عن سبل الهداية الأخرى.

قال تعالى في بني إسرائيل:"

" أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ"[3]

ومن هذه اللمحة

قسم ابن القيم في الفوائد، هجر القرآن إلى أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

---

[1] - الفرقان :30

[2] - سائح في رياض القرآن- د. محمود محمد عمارة

[3] - البقرة: 85

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه

واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائها،

فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به.

وكل هذا داخل في قوله تعالى:

{وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا}[1]

وهذه الأنواع كلها تحققت في المسلمين اليوم، فمن يقرأ لا يتدبر، ومن يتدبر لا يعمل به ولا يحكم، لقد صار جفوة بيننا وبين كتاب الله.. وخصومة بيننا وبين تعاليمه..
فأصبحنا بهذا الهجر، أذل الأمم وأهون الشعوب

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

السلف والقرآن

لقد أدرك السلف الصالح عظمة القرآن، وأنه الكتاب الذي يجدون فيه عزهم وسيادتهم، فانقادوا به، وجعلوه إمامهم، فصيرهم أئمة الدنيا وقادة العالمين، لقد حملوه بأيديهم وأخلصت له قلوبهم، وصارت بينهم وبينه حالة كبيرة من الود والعشق، فكانوا يدمنون قراءته، وينافسون في العمل بأحكامه، لقد عرفوا أنه النافذة التي يطلون منها على نور الحق، وأنه طريق القرب من ربهم سبحانه.

قال ^:

" ما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه"[2]

قال خباب بن الأرت τ :

" تقرب إلى الله ما استطعت.. واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه"[3]

وفوق هذا ما كان يشغلهم عنه شاغل

---

[1] - الفوائد لابن القيم
[2] - سنن الترمذي حديث غريب
[3] - مجموع فتاوى ابن تيمية

قال عثمان بن عفان τ:

"ما أحب أن يأتي عليّ يوم ولا ليلة إلا أنظر في كلام الله -يعني- : القراءة في المصحف"[1]

ثم تأمل قول ابن مسعود τ لتعرف أن القرآن في نظرهم كان حياة القلوب ودواؤها من الشرود والغفلة فقد قال:

"اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي وقت الخلوة، فإن لم تجده في هذه المواطن، فاعلم أنه لا قلب لك فسل الله قلبًا آخر"[2]

وقال النووي رحمه الله في الأذكار وهو يحكي عن السلف الصالح شغفهم بالقرآن الكريم، وتعلقهم بقراءته:

" كانت للسلف رضي الله عنهم عادات مختلفة في القدر الذي يختمون فيه ، فكان جماعةٌ منهم يختمون في كل شهرين ختمة، و آخرون في كل شهر ختمة، و آخرون في كل عشر ليال ختمة، و آخرون في كل ثمان ليالٍ ختمة، و آخرون في كل سبع ليالٍ ختمة، و هذا فعل الأكثرين من السلف، و آخرون في كل ستّ ليال ، و آخرون في خمس ، و آخرون في أربع ، و كثيرون في كل ثلاث ، و كان كثيرون يختمون في كل يوم و ليلة ختمة، و ختم جماعة في كل يوم و ليلة ختمتين.. و آخرون في كل يوم و ليلة ثلاث ختمات ، و ختم بعضهم في اليوم والليلة ثماني ختمات: أربعاً في الليل، و أربعاً في النهار: و ممّن ختم أربعاً في الليل و أربعاً في النهار، السيد الجليل ابن الكاتب الصوفي τ و هذا أكثر ما بلغنا في اليوم و الليلة.

و روى السيد الجليل أحمد الدورقي بإسناده عن منصور بن زاذان بن عباد التابعي τ، أنه كان يختم القرآن ما بين الظهر و العصر، و يختمه أيضاً فيما بين المغرب و العشاء، و يختمه فيما بين المغرب و العشاء في رمضان ختمتين و شيئاً، و كانوا يؤخرون العشاء في رمضان إلى أن يمضي ربع الليل .

و روى ابن أبي داود بإسناده الصحيح

" أنّ مجاهداً رحمه الله كان يختم القرآن في رمضان فيما بين المغرب و العشاء .

و أما الذين ختموا القرآن في ركعة فلا يُحصون لكثرتهم ، فمنهم عثمان بن عفان، وتميم الدّاري ، و سعيد بن جبير"[1]

---

[1] - الزهد لابن حنبل
[2] - الفوائد لابن القيم

تدبر القرآن

وهذا الإقبال على القرآن لابد أن يصحبه تأمل وتدبر، فلا يعقل أن تقرأ القرآن هكذا دون أن تتفاعل معه نفوسنا، وتشعر بهديه قلوبنا..!

والذين يقرؤون القرآن على هذه الحال، ما أشد عناءهم وخسارتهم، إذ أي ثمرة يجنون.

قال الإمام النووي رحمه الله:

" اعلم أن تلاوة القرآن هي أفضل الأذكار، والمطلوب القراءة بالتدبر، وينبغي للقارئ أن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع، فهذا هو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب، ودلالته أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر. وقد بات جماعة من السلف يتلو الواحد منهم آية واحدة ليلة كاملة، ومعظم ليلة يتدبرها عند القراءة."[2]

و"المراد من الذكر حضور القلب، فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر، فيحرص على تحصيله، ويتدبر ما يذكر، ويتعقل معناه.. فالتدبر في الذكر مطلوب، كما هو مطلوب في القراءة لاشتراكهما في المعنى المقصود"

وقال إبراهيم الخواص:

" دواء القلب في خمسة أشياء:

"قراءة القرآن بالتدبر

وخلاء الباطن

وقيام الليل

والتضرع عند السحر

ومجالسة الصالحين"[3]

وذكرنا فيما سبق أن ابن القيم رحمه الله، قسم القرآن إلى أنواع وعد منها، هجر التدبر والتأمل، كما قال:

---

[1] - الأذكار للنووي
[2] - الأذكار للنووي
[3] - روض الرياحين في حكايات الصالحين

" الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:

أحدهما: النظر في مفعولاته.

والثاني: التفكر في آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة.

فالنوع الأول كقوله تعالى:

"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ"[1]

وقوله:

"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الألْبَابِ"[2]

وهو كثير في القرآن.

والثاني كقوله:

"أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ"[3]

وقوله:

"أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ"[4]

وقوله:

"كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ"[5]

وقال في موطن آخر :

[1] - البقرة 164
[2] - آل عمران: 190
[3] - النساء : 82
[4] - المؤمنون :68
[5] - ص: 29

" إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك واسمع حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله،

" إن هو إلا ذكر وقرآن مبين، لينذر من كان حيا"[1]

ذكر الجنة والنار

لقد مات رسول الله ^ أحب الخلق إلى الله، وكل إنسان سوف يموت.

إنه المآل إذن، والنهاية، الموت والفناء، وبعده جنة أو نار، وهذا المآل الخطير وهذا الغيب المجهول، يدفع الإنسان أن يتساءل ويتحرى.

كيف يكون مصيره

وعلى أي نهاية يستقر أمره

أمن أهل الجنة هو أمن أهل النار؟

ولا يغيب هذا التساؤل عن ذهن الإنسان، إلا إنسان ذهب عقله أو ضل ضلالا مبينا.

[1] - يس:69-70

وهنا يأتي دور القرآن والسنة المباركة، وكل منهما يمتلئ ذكرًا بالحديث عن بشاعة جهنم ونعيم الجنة، لتزيد من فكر الإنسان في مصيره ومستقره، فلا يغيب عن ربه أبدًا، ولا يغيب عن تزكية نفسه لحظة واحدة، وإلا حرم الخير الكثير.

وبقدر ما يكون الترهيب والخوف من جهنم، رادعًا لضلال الإنسان وغفلته، فكذلك الحديث عن نعيم الجنة، ومباهجها التي لا يسمع عنها عاقل إلا رغب فيها، وعمل لنيلها، فتزكو نفسه، ويخلص لربه، لينال هذا الأمل المنشود والأمنية المرجوة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

«إذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار، ورجاء هذه والهرب من هذه فترت عزائمه، وضعفت همته، ووهى باعثه، وكلما كان أشد طلبًا للجنة وعملا لها، كان الباعث له أقوى، والهمة أشد والسعي أتم»[1]

وقال علي بن أبي طالب τ:

" شبع يحيى بن زكريا عليهما السلام من خبز شعير فنام عن ورده حتى أصبح، فأوحى الله تعالى إليه يا يحيى أوجدت دارًا خيرًا لك من داري أم وجدت جوارًا خيرًا لك من جواري؟! فوعزتي وجلالي يا يحيى، لو اطلعت إلى الفردوس اطلاعة، لذاب شحمك ولزهقت نفسك اشتياقًا، ولو اطلعت إلى جهنم اطلاعه لذاب شحمك ولبكيت الصديد بعد الدموع ولبست الجلد بعد المسوح"[2]

و"قفل أبو ريحانة من بعث غزا فيه، فلما انصرف أتى أهله فتعشى من عشائه، ثم دعا بوضوء فتوضأ منه، ثم قام إلى مسجده، فقرأ سورة ثم أخرى، فلم يزل ذلك مكانه، كلما فرغ من سورة افتتح أخرى، حتى إذا أذّن المؤذّن من السّحر شد عليه ثيابه، فأتته امرأته فقالت: يا أبا ريحانة قد غزوت فتعبت في غزوتك ثم قدمت، ألم يكن لي منك حظ ونصيب؟ فقال: بلى، والله، ما خطرت لي على بال، ولو ذكرتك لكان لك علي حق، فقالت: فما الذي شغلك يا أبا ريحانة؟ قال: لم يزل يهوى قلبي فيما وصف الله في جنته من لباسها وأزواجها ولذاتها، حتى سمعت المؤذّن."[3]

وهنا نأتي لبعض الآيات والاحاديث التي تحدثت عن وصف الجنة والنار، لينظر المسلم بعقله كلما رأى أو سمع بعضًا منها، فتظل الصورة عالقة بذهنه لا تغيب، وتظل الحيرة في مصيره، شاغلة لكيانه وفكره، فيندفع لتزكية نفسه اندفاع الغريق يرجو النجاة.

---

[1] - مدارج السالكين
[2] - الإحياء
[3] - الزهد لابن المبارك

1- من وصف الجنة:

قال تعالى :

"وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ"[1]

وقال تعالى:

" هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ * مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ*وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ *هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ * إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ "[2]

وقال تعالى:

" إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا*وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا*جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَابًا"[3]

وقال رسول الله ^ :

" لما خلق الله جنة عدن خلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قال لها: تكلمى، فقالت: قد أفلح المؤمنون"[4]

وقال رسول الله ^ :

"ألا هل مُشَمِّر إلى الجنة ، فإن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة في مَحَلَّة علية بهية , قالوا : يا رسول الله نحن المشمرون لها . قال : قولوا : إن شاء الله ، فقال القوم : إن شاء الله"[5]

2- من وصف النار:

قال تعالى :

[1] - آل عمران :133
[2] - ص:49-54
[3] - النبأ: 31-39
[4] - أخرجه الطبراني
[5] - أخرجه ابن ماجة والبيهقي والبزار

" إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا* لِلْطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا* جَزَاء وِفَاقًا *إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا"[1]

وقال تعالى:

" كَلَّا إِنَّهَا لَظَى*نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى *وَجَمَعَ فَأَوْعَى"[2]

وقال تعالى:

" وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ* سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ * لِيَجْزِي اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ"[3]

وعن أبي هريرة τ عن النبي ^ :

" نارُكم هذه ما يُوقِدُ بنو آدمَ جزءٌ واحدٌ من سبعينَ جزءًا من نارِ جهنمَ قالوا: يا رسولَ اللهِ إنها أي نارَ الدنيا لكافيةٌ قال: إنها فُضِّلَت عليها بتسعةٍ وستينَ جزءًا كلُّهن مثلُ حرِّها."[4]

وقال ^:

" أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة"[5]

وقال رسول الله ^:

" مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى وجبريل كالحلس البالي من خشية الله تعالى"[6]

وأخرج البيهقي و أحمد في الزهد:

عن أبي عمران الجوني أنه بلغه أن جبريل أتى النبي ^ وهو يبكي، فقال له رسول الله ^: وما يبكيك؟ قال : وما لي لا أبكي، فو الله ما جفت لي عين منذ خلق الله النار، مخافة أن أعصيه فيلقيني فيها"

و عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ^:

---

[1] - النبأ: 21-30
[2] - المعارج: 15-18
[3] -إبراهيم : 49-51
[4] - رواه البخاري ومسلم
[5] - الترمذي
[6] - صححه الألباني في صحيح الجامع

" يلقى على أهل النار الجوع، فيعدل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن، ولا يغني من جوع، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون: أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب، فيستغيثون بالشراب فيدفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم، فإذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم، فيقولون: ادعوا خزنة جهنم، فيقولون:

(ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟ قالوا: بلى، قالوا: فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) . قال: فيقولون: ادعوا مالكا، فيقولون: (يا مالك ليقض علينا ربك)، قال: فيجيبهم: (إنكم ماكثون) "

- قال الأعمش: نبئت أن بين دعائهم، وبين إجابة مالك إياهم ألف عام، - قال:

"فيقولون: ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم، فيقولون: "ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون "

قال: فيجيبهم (اخسئوا فيها، ولا تكلمون)[1].

قال: فعند ذلك يئسوا من كل خير، وعند ذلك يأخذون في الزفير والحسرة والويل "[2]

ويأتي الحديث عن حياتها وعقاربها وما فيه من هول التوصيف وفزع التصوير،

ففي الحديث:

" إن في النار حيات كأمثال أعناق البخت، تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا، وإن في النار عقارب كأمثال البغال الموكفة، تلسع إحداهن اللسعة، فيجد حموتها أربعين سنة "[3]

وعن الحسن رحمه الله: "أن النار تأكلهم كل يوم سبعين ألف مرة ثم يعودون كما كانوا"[4]

مجالس الإيمان

ونقصد بها تلك المجالس التي يجتمع فيها أصحابها للذكر والعبادة والتعلم ومدارسة الأخلاق والفضيلة.

---

[1] - المؤمنون:108

[2] - إحياء علوم الدين

[3] - رواه أحمد في مسنده

[4] - مختصر منهاج القاصدين

كل هذه المجالس بمثابة عوامل تثبيت للنفس ضد كل ما يعترضها من عوامل الفتور أو ضعف الإيمان، الذي يؤدي إلى انسلاخ النفس من سمات الشخصية المسلمة، التي صاغها القرآن الكريم والسنة المطهرة.

ولا يظن ظان، أن كثرة اللقاءات الإيمانية قد تصيب بالفتور، فاللقاءات شيء، والموعظة شيء آخر.

روي البخاري عن ابن مسعود τ قال:

كان رسول الله يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا

وذلك لأن الموعظة تكليف ونصح، والتكليف والنصح قد يثقل على بعض النفوس، أما اللقاء فهو متنوع، فقد يكون كما أشرنا مجلسًا للذكر، أو تلاوة القرآن، وقد يكون مجلس علم تتنوع فيه وسائل العلم، كأن تكون مدارسة للسيرة النبوية وتراجم الأعلام، وقد يكون حديثًا عن الغزوات والبطولات، وقد يكون بحثًا في مسائل الفقه، أو شرحًا لحديث نبوي.

وكل هذه الأمور، بهذا التنوع لا تُبغضها النفس ولا تملها، بل تحبها وتقبل عليها.

والمسلم الصادق يشعر في نفسه بأهمية هذه اللقاءات، ومدى تأثيرها على نفسه وسمته، ويشعر كذلك بانحدار نفسه، وفقرها في جانب التزكية، حينما تجرم من هذه اللقاءات.

روى مسلم وأحمد والترمذي أن حنظلة بن الربيع الأسدي لما قابل الصديق رضي الله عنهما وصدقه في وصف حالته، فذهبا إلى النبي ^ وقال له: يا رسول الله نكون عندك وتذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين- أي كأننا نراهما رأي عين- فإذا خرجنا من عندك عافسنا الازواج .. إلخ.

لاحظ هنا ..في قوله τ نكون عندك، أي هو وغيره، فهو لقاء واجتماع به، ثم يصور شعوره كمؤمن يتفقد أحوال نفسه، بمدى تأثيرها بعوارض الدنيا، حينما تنتهي من مجلس رسول الله ^ مما يدل على أن نفس المؤمن في صراع، فالشيطان والدنيا يريدان أن ينتزعانها من حقل الإيمان.

فهي دون شك في حاجة ماسة ومستمرة لكل لقاء إيماني يزكيها ويرفعها ويثبتها على الطريق.

وإذا نظرنا للآثار النبوية لرأينا كيف رفعت من قيمة اللقاء الإيماني، وما ينتج عنه من خيرات وبركات تسعد بها القلوب وتنشرح لها النفوس.

فعن أبي هريرة τ أن رسول الله ^ قال:

" ما اجْتَمع قَوْمٌ في بَيْتٍ مِن بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بيْنَهُمْ، إلَّا نَزَلَتْ عليهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَن عِنْدَهُ"[1]

وقال :

" إن لله ملائكة سياحين في الأرض فإذا رأوا حلقة من حلق الذكر، حفوهم بأجنحتهم، وتنادوا أن هذه طلبتكم"

عن أبي سعيد الخدري τ قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد، فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله^ أقل عنه حديثا مني، وإن رسول الله^ خرج على حلقة من أصحابه، فقال:

" ما أجلسكم ؟ " قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومن به علينا. قال:" آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ " قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: " أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة "[2]

وبقدر ما حثت السنة على هذه المجالس المباركة، فقد حذرت كذلك من كل مجلس لا يذكر فيه الله، وكل لقاء لا يتصل الحديث فيه بأمر الحق سبحانه وتعالى.

عن أبي هريرة τ عن النبي ^ قال:

"ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة ، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم "[3]

وعن أبي هريرة τ قال: قال رسول الله ^:

" ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان عليهم حسرة يوم القيامة"[4]

[1] - رواه مسلم
[2] - رواه مسلم
[3] - رواه أبو داود والترمذي
[4] - رواه أبو داود والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم

الصحبة الصالحة

يقول الله تعالى آمرًا نبيه ^ أن يلزم الصالحين من أتباعه:

"وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ"[1]

وتحدث الحق سبحانه على لسان موسى عليه السلام، حينما تجشم المشاق ليسعد بصحبة العبد الصالح:

"هل أتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا"[2]

وفي موطن آخر.. نراه يعلن عن حاجته الماسة لأخيه هارون ليشد به أزره، ويشاركه محن الدعوة وملاحمها، ويتقوى به على الذكر والعبادة والطاعة.

" واجعل لي وزيرًا من أهلي، هارون أخي، اشدد به أزري، وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيرًا، ونذكرك كثيرًا، إنك كنت بنا بصيرًا"[3]

ثم كان جواب الله تعالى له:

"قد أوتيت سؤلك يا موسى"

كل هذه نصوص قرآنية توضح لنا أهمية الأخ الصالح، وما له من تأثير كبير في تزكية النفس وهجر المعاصي، لأن المسلم ضعيف بنفسه قوي بإخوانه الذين يذكّرونه بالله، ويعينونه على طاعته، ويقفون وراءه أمام كل نزوة أو شهوة تحاول إغواءه.

إن هذا العنصر في حقيقته من أهم عوامل التزكية، وأشدها تأثيرًا على النفس، ومن هنا قال ^:

"من يرد الله به خيرًا رزقه خليلا صالحًا إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه"[4]

ولاحظ هنا: قوله (رزقه) والرزق هو الخير الذي يمنحه الله تعالى لعباده، ولا يغيب عنا في هذا المقام حديث قاتل المائة، حيث قال له العالم الفقيه ناصحًا:

---

[1] - الكهف :28
[2] - الكهف 66
[3] - طه:29-35
[4] - رواه أبو داوود

" انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك ؛ فإنها أرض سوء"[1]

ويقول أيضا:

" لا تصاحب إلا مؤمنا"[2]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل: يا رسول الله أي جلسائنا خير؟ قال

" من ذكركم بالله رؤيته، وزاد في علمكم منطقه، وذكركم بالآخرة عمله"[3]

وقال عمر بن الخطاب τ:

"عليك بإخوان الصدق عش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء"

وبعد هذه الآثار أيليق بمسلم يريد لنفسه أن تزكو وتتصل بالله، أن يصاحب التائهين الشاردين عن طريق الحق؟! الذين لا تزيده صحبتهم إلا ضلالا وتيهًا عن طريق الحق سبحانه، أليس هؤلاء من يأتون يوم القيامة أمام ربهم، وقد تنصل وتبرأ كل منهم من أخيه وخله؟!

قال تعالى:

"الأخلاء بعضهم يومئذ لبعض عدو.. إلا المتقين"[4]

فأي خير إذا في صحبتهم ورفقتهم؟

ولله در القائل:

وكيف استنمت إلى فاسق ** وقارنته وهو بيس القرين

وقد أنزل الله في وحيه ** يحذر عن صحبة الفاسقين

فلا تتخذ منهم خادما ** وذرهم إلى لعنة اللاعنين

فقد ضجت الأرض من فسقهم **وكادت تميد بنا اجمعين

تأمل بعينيك أقطارها ** تجدهم كلابا بها خاسئين!

وكيف انفردت بتقريبهم ** وهم في البلاد من المبعدين؟!

---

[1] - رواه مسلم
[2] - رواه أبو داود والترمذي
[3] - رواه أبو يعلى
[4] - الزخرف: 67

* وما أصدق ما نصح به المجدد الشهيد، حينما جاءه شاب يشكو جمود قلبه، فكان مما وصفه له:" صحبة أهل الخشوع والتأمل، وملازمة أهل التفكير والتبتل، وملازمة هذا الصنف من الأتقياء الصالحين الذين تتفجر جوانبهم بالحكمة، وتشرق وجوههم بالنور، وتزدان صدورهم بالمعرفة دواء ناجح، فاجتهد أن يكون لك من هؤلاء أصدقاء تلازمهم، وتؤوى إليهم، وتصل روحك بأرواحهم، ونفسك بنفوسهم، وتقضى معهم معظم وقت الفراغ، واحذر من الأدعياء، وتحر من ينهضك حاله، ويدلك على الخير فعاله، ومن أذا رأيته ذكرت الله.

هذه الصحبة من أنفع الأدوية، فالطبع سراق، والقلب يتأثر بالقلب، وتستمد الروح من الروح، فاجتهد أن تجد لك من الأرواح الصالحة صاحبًا"[1]

محاسبة النفس

محاسبة النفس.. هذا العمل العظيم الذي يجسد ويمثل عملية التذكير المستمر للإنسان حتى لا ينسى، وتسرقه الغفلة عن مصيره وحقيقته ومساره الذي يجب أن يكون عليه.

[1] - انظر العقيدة للشيخ الخطيب

محاسبة النفس.. تمثل عملية إيقاظ الضمير من حوادث الدنيا التي تخدره، وتصيبه بالذهول وتسرقه إلى غفلتها، فيتلها عن رسالته ومهمته في الحياة، وهي عبودية الله تعالى.

لقد دعانا الله تعالى إلى الوقوف دومًا مع النفس، ومناقشتها ومخاطبتها والنظر في أمرها وأفعالها وتأنيبها وعتابها إن أخطأت وضلت.

قَالَ تَعَالَى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[1]

قال ابن القيّم رحمه الله:

"دلت الآية على وجوب محاسبة النفس، فيقول تعالى: لينظر أحدكم ما قدَّم ليوم القيامة من الأعمال، أَمِنَ الصالحات التي تنجيه؟ أم من السيئات التي توبقه؟"[2]

ولعلي هنا أنقل لك بعض النقول المفيدة في هذا الميدان، حتى تدرك أهميته، وتجعل منه واجبًا يوميًا تداوم عليه، وتؤمن بأثره البالغ في عملية التزكية، وترويض النفس على الطاعات، وإلزامها دومًا بالحق والصواب. فما "أضر على المسلم من الإهمال وترك المحاسبة والاسترسال وتسهيل الأمور وتمشيتها، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور يغمض عينيه عن العواقب ويمشي الحال ويتكل على العفو فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب وأنس بها، وعسر عليه فطامها ولو حضر رشده لعلم أن الحمية أسهل من الفطام، وترك المألوف والمعتاد"[3]

قال الحسن البصري رحمه الله:

"لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه، ماذا أردتِ تعملين؟ وماذا أردتِ تأكلين؟ وماذا أردتِ تشربين؟ وإن الفاجر يمضي قدمًا ما يعاتب نفسه"[4]

قال الماوردي:

---

[1] الحشر: 18
[2] - إغاثة اللهفان
[3] - إغاثة اللهفان بتصرف
[4] - نفس المصدر

"محاسبة النفس أن يتصفح الإنسان في ليله ما صدر من أفعاله نهارَه، فإن كان محمودًا أمضاه، وأتبعه بما شاكله، وضاهاه، وإن كان مذمومًا استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل"[1]

عن شداد ابن أوس τ عن رسول الله ﷺ:

" الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني "[2]

لقد كان الصحابة يعتدون بهذا العمل، ويعدون محاسبة النفس من أوجب الأعمال التي تردهم للحق، وتحيي في نفوسهم الصواب.

قَالَ عمر بن الخطاب τ:

"حَاسِبُوا أَنفُسَكُم قَبلَ أَن تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنفُسَكُم قَبلَ أَن تُوزَنُوا، فَإِنَّهُ أَهوَنُ عَلَيكُم فِي الحِسَابِ غَدًا، أَن تُحَاسِبُوا أَنفُسَكُمُ اليَومَ، وَتَزَيَّنُوا لِلعَرضِ الأَكبَرِ، يَومَئِذٍ تُعرَضُونَ لَا تَخفَى مِنكُم خَافِيَةٌ"[3]

وقَالَ أَنَسُ بنُ مَالِكٍ τ:

"سَمِعتُ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ τ يَومًا وَقَد خَرَجتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ حَائِطًا فَسَمِعتُهُ يَقُولُ وَبَينِي وَبَينَهُ جِدَارٌ وَهُوَ فِي جَوفِ الحَائِطِ:

عُمَرُ بنُ الخَطَّابُ أَمِيرُ المُؤمِنِينَ بَخٍ، وَاللهِ لَتَتَّقِيَنَّ اللهَ ابنَ الخَطَّابِ أَو لَيُعَذِّبَنَّكَ"[4]

وقال إبراهيم التيمي:

"مَثَّلْتُ نفسي في الجنة: آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مَثَّلْتُ نفسي في النار: آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها، وأغلالها، فقلت لنفسي: أي نفسي أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحًا، قلت: فأنت في الأمنية فاعملي"[5]

ويقول ميمون بن مهران:

---

[1] - أدب الدنيا والدين
[2] - رواه النذري
[3] -إغاثة اللهفان
[4] - الموطأ
[5] - محاسبة النفس لابن أبي الدنيا

(لا يكون العبد تقيًا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه) [1]

ويقول الحسن رحمه الله:

" المؤمن قوام على نفسه يحاسبها وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة"[2]

ثم فسر المحاسبة فقال: إن المؤمن يفاجئه الشيء يعجبه فيقول: والله إنى لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من حيلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك "

وقال وهب ابن منبه:

" حق على العاقل أن لايشغل عن أربع ساعات - ساعة يناجى فيها ربه _ وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفضى فيها الى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه – وساعة يخلى بين نفسه وبين لذاتها فيما أحل الله وليس ما حرم فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات واجمام للقوة "[3]

وسئل ذ و النو ن: بم ينال العبد الجنة فقال بخمس:- استقامة ليس فيها روغان _ واجتهاد ليس معه سهو _ ومراقبة لله تعالى في السر والعلانية _ وانتظار الموت بالتأهب له – ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب "[4]

ويقول الغزالي رحمه الله تعالى:

"عُرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب، ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة، وصدق المراقبة، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته" [5]

ولعل هناك فوائد جمة لعنصر المحاسبة، لفت إليها العلماء الأنقياء كان منها:

أولًا: الاطِّلاع على عيوب النفس، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته.

---

[1] - مدارج السالكين
[2] - حلية الأولياء
[3] - محاسبة النفس لابن أبي الدنيا
[4] - إحياء علوم الدين
[5] - إحياء علوم الدين

ثانيًا: دليل على الخوف من الله والاستعداد للقائه.

ثالثًا: تبين للمؤمن حقيقة الربح والخسران.

رابعًا: محاسبة النفس في الدنيا تريح المؤمن يوم القيامة.

خامسًا: فيه امتثال لأمر الله تعالى.

سادسًا: تبعد عن الغفلة، والاستمرار في المعاصي والذنوب.

سابعًا: تعين المؤمن، وتساعده في استدراك ما نقص من الفرائض، والنوافل.

ثامنًا: تثمر محبة الله ورضوانه.

تاسعًا: أنه يعرف بذلك حق الله تعالى عليه، ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه، فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه، وهي قليلة المنفعة جدًّا.

عاشرًا: أن صلاح القلب بمحاسبة النفس، وفساده بإهمالها والاسترسال معها.

كما نجد أن محاسبة النفس أنواع ذكرها ابن القيم رحمه الله، فليرى كل منا نفسه فيها:

ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده.

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته فينظر: هل العمل موافقٌ لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ أم لا؟ فإن كان موافقًا أقدم، وإن كان مخالفًا ترك، ثم ينظر: هل فعله خير له من تركه؟ أو تركه خير له من فعله؟ فإن كان الثاني: تركه ولم يقدم عليه، ثم ينظر: فإن كان لله مضى، وإن كان للجاه، والثناء، والمال من المخلوق ترك.

أما النوع الثاني: فهو محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع:

أولًا: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي، وحق الله في الطاعة ستة أمور: الإخلاص لله في العمل، النصيحة لله فيه، متابعة الرسول ﷺ ، شهود مشهد الإحسان فيه، شهود منة الله عليه، شهود تقصيره فيه، بعد ذلك كله يحاسب نفسه هل وَفَّى هذه المقامات حقها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

ثانيًا: أن يحاسب نفسه على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئًا تداركه بالتوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية.

ثالثًا: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا من فعله.

رابعًا: أن يحاسب نفسه على أمر مباحٍ، أو معتادٍ، لم فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا وعاجلها؟ فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر.

"ومن البدع الغريبة التي ابتكرها الغربيون وقلد هم فيها للآسف بعض المسلمين، أن يقيم أحدهم كلما انقضت سنة من عمره، حفلا بهيجًا يقدم فيه ما لذ وطاب من الطعام والشراب يسميه الناس عيد ميلاد.

وقد درج الناس على طقوس وتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان، كإضاءة شموع بعدد سنوات عمر المحتفى به أو عقودها ثم إطفائها في حركة مسرحية وتبادل التهاني والهدايا بهذه المناسبة، والأولى والأجدر أن يأس الإنسان على نفسه، بما انهدم من بنيان عمره، وما طوى من كتاب حياته، فكل يوم يمضى إنما هو ورقة في شجرة عمره قد ذ بلت وسقطت.

ورحم الله الحسن البصري حين قال:

" يا ابن آدم إنما أنت أيام مجموعة كلما ذهب يوم ذهب بعضك"

يقول الشاعر:

اذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل* خلوت ولكن قل على رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة * ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

وسئل بعضهم عن قوله تعالى

" رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه "[1]

قال: معناه لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده

وقال محمد ابن على الترمذي:

"اجعل مراقبتك لمن لاتغيب عن نظره إليك واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه، واجعل خضوعك لمن لاتخرج عن ملكه وسلطانه"[2]

[1] - البينة: 8

[2] - راجع منهج الإسلام في تربية النفس لسامي محمود

وفى العصر الحديث "يوصى الخبراء وعلماء النفس بضرورة محاسبة المرء لنفسه، ومما كتب أن بعض رجال الأعمال الأمريكيين كان يحاسب نفسه كل مساء، وبعد محاكمة عسيرة لها، اكتشف أن هناك ثلاثة عشر خطأ خطيرًا يقترفها على الدوام، وهذه هي أهم ثلاثة منها:- تضيع الوقت سدى - الانشغال بالتوافه - والجدل في غير طائل، ورسخ في ذهنه، أنه ما لم يتخلص من هذه الأخطاء، فلن يتقدم في الحياة شيئًا يذكر، ومن ثم عمل إلى تخصيص أسبوع لمحاربة كل نقيصة من نقائصه على التوالي، وأفرد سجلا يدون فيه يومًا بيوم أنباء انتصاره على نفسه وعلى نقائصه أو هزيمته أمامها، وقد لبث الرجل في حرب ضد أخطائه أكثر من عامين، فلا عجب أن غدا واحدًا من أعظم رجالات أمريكا، إنه بنجامين فرانكلين جونز."[1]

ذكر الموت

قال تعالى:

" كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ "[2]

وقال تعالى:

" كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ "[3]

وقال تعالى:

---

[1] - المصدر السابق

[2] -العنكبوت: 57

[3] - القصص: 88

" فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ "[1]

وقال تعالى:

" كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ *وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ"[2]

وقال تعالى:

" أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ..."[3]

هذه الآيات من القرآن الكريم، في سور مختلفة من مواطنه، جاءت كلها تذكر بالموت، وليست هذه الآيات وحدها، بل حمل القرآن في كثير من آياته ما ينذر بالموت ويذكر به، لقد أراد الله تعالى بين الحين والحين، أن يأتي بآية تذكر هذه الحقيقة الكبرى، وذلك لكي لا تغيب أبدًا حقيقة الموت عن ذهن الإنسان وفكره وتأمله وخاطره.

ويتضح هذا بجلاء في قوله تعالى:

" الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا" [4]

وفي هذه الآية المباركة، نرى الحق تعالى يقدم الموت على الحياة، علمًا بأن الحياة هي التي تسبق الموت!

فما العلة إذًا من هذا التقديم؟

إنها كما قال النسفي رحمه الله تعالى:

" قدم الموت على الحياة ليجعله العباد نصب أعينهم، فلا يغيب عن فكرهم وخيالهم أبدا، ولكم ما المصلحة في أن يظل الموت ماثلا أمامنا لا يغيب؟! المصلحة في ذلك أن الموت من أعظم الأمور التي تشعر الإنسان بضعفه، وتهدم الكبر والغفلة في نفسه، فيهجر كل باطل، ويبغض كل زائل.

إن المآل الذي يفجع الإنسان كلما تذكره، فلا يجد خلاصًا من كربه، غير اللجوء إلى ربه، ولمثل هذا دعا الرسول الكريم ﷺ إلى الإكثار من ذكره فقال:

" أكثروا من ذكر هادم اللذات"[1]

---

[1] - العراف : 34
[2] - الرحمن:26-27
[3] - النساء: 78
[4] - الملك: 2

وهادم اللذات أي قاطعها ومذيلها من أصلها.

وعن أنسτ:أن رجلاً ذكر عند النبي ^ فأحسنوا عليه الثناء، فقال النبي ^

" كيف كان ذكر صاحبكم للموت ؟ " قالوا: ما كنا نسمعه يذكر الموت . قال: " فإن صاحبكم ليس هناك "[2]

وعن ابن عمرτ : أن النبي ^ سئل: أي المؤمنين أكيس؟ قال :

" أكثرهم للموت ذكرًا وأشدهم استعداداً له أولئك هم الأكياس "[3]

وقال الحسن البصري رحمه الله:

فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي لب فيها فرحاً، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت، إلا صغرت الدنيا عليه، وهان عليه جميع ما فيها.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، وكان يجمع الفقهاء كل ليلة، فيتذكرون الموت والقيامة ثم يبكون، حتى كأن بين أيدهم جنازة.

وكان حامد القيصري يقول: كلنا قد أيقن الموت، وما نرى له مستعداً، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً، كلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً، فلا تفرحوا؟ وما عسيتم تنتظرون الموت، فهو أول وارد عليكم من أمر الله بخير أو بشر، فيا إخوتاه ! سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً .

وقال شميط بن عجلان: من جعل الموت نصب عينيه، لم يبال بضيق الدنيا ولا بسعتها .

واعلم : أن خطر الموت عظيم، وإنما غفل الناس عنه لقلة فكرهم وذكرهم له، ومن يذكره منهم إنما يذكره بقلب غافل، فلهذا لا ينجع فيه ذكر الموت، والطريق في ذلك، أن يفرغ العبد قلبه لذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة، أو يركب البحر، فإنه لا يتفكر إلا في ذلك، وأنفع طريق في ذلك، ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قلبه، فيذكر موتهم ومصارعهم تحت الثرى .

قال ابن مسعود τ:

السعيد من وُعظ بغيره

---

[1] - رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة
[2] - مختصر منهاج القاصدين
[3] - رواه ابن ماجة

وقال أبو الدرداءτ:

إذا ذكر الموتى، فعد نفسك كأحدهم.

وإذا كان من كلمة أو وصف للموت، فلا يسعنا في وصفه إلا أن نقول:

الموت هو الذي صرع الأبطال، وأفنى الأجيال، وأزال الممالك، وأزاح كل مالك

الموت هو الذي أباد الجبابرة، وبدد عروش الأباطرة

الموت هو الذي تبكي له العين، ويخشع له القلب، وتجزع له النفس، لنه الفناء، وفي معناه الزوال، من ذكر أمامه الموت فلم تؤثر فيه موعظته، فهو التائه الضائع الغافل عن تزكية نفسه، وترويض قلبه، وتقويم عقله.

فكيف لا يغتنم المسلم هذه الفرصة، فيتفكر في ساعة الموت، ويتدبر ساعة الرحيل؟

ويبذل كل عمل يؤصل فيه هذه التزكية؟!

وعلى رأس هذه الأعمال التي تُذكر بالموت وتدل عليه:

1- زيارة القبور:

فالقبر متصل بالموت، لا يذكر الموت إلا ويذكر القبر، لأنه أول مراحل الآخرة، وفيه من العذاب ما يزلزل النفوس، ويملأها خوفًا ووجلا، لقد حث رسول الله^ على زيارة القبور، لأن في زيارتها عظة وعبرة.

فعن أبي سعيد الخدري τ قال: قال رسول الله ^:

كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها؛ فإنها تذكركم الآخرة" وفي لفظ: تذكركم الموت"

* لقد كان السلف الصالح رضوان الله عليم يدركون أن زيارة القبور، دواء من أدوية القلب ضد ما يؤلمه ويعترضه من القسوة والغفلة وضعف الإيمان والفتور، إذ جاءت امرأة لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تشكتي قسوة قلبها، فنصحتها بزيارة القبور ، فما لبثت المرأة أن رق قلبها، وتمخضت عاطفتها.

* وكان أبو الدرداء τ يقعد إلى القبور، فقيل له في ذلك: فقال: أجلس لقوم يذكروني ميعادي ، وغن غبت لم يغتابوني.

وقال عيسى بن مريم عليه السلام:

"عجبتُ لثلاثة: لغافل وليس بمغفول عنه، ومُؤَمِّل دنياه والموت يطلبه، وبانٍ قصْراً والقبر مسكنه"[1]

* وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكي، ثم أقبل على فقال: يا ميمون هذه قبور آبائي بني أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم، أمَا تراهم صَرْعَى قد حلَّت بهم المَثُلات، واستَحكَمَ فيهم البلى، وأصاب الهوامُّ في أبدانهم مقيلاً، لسان حالهم يقول: كنَّا عِظاماً فصِرنا عِظاماً، وكنَّا نَقُوت فها نحن قُوت، ثم بكى حتى غُشِي عليه، ثم أفاق فقال: يا أبا أيوب انطلق بنا، فو الله ما أعلمُ أحداً أنعم ممَّن صار إلى هذه القبور، وقد أمن من عَذاب الله عزَّ وجلَّ.

هذا وينبغي للإنسان أن يزور القبور في كل وقت، في الليل والنهار، في الصباح والمساء، في يوم الجمعة وغيره، ليس لها وقت محدد، وكلما غفل قلبك واندمجت نفسك في الحياة الدنيا ، فاخرج إلى القبور ، وتفكر في هؤلاء القوم، الذين كانوا بالأمس مثلك على الأرض، يأكولن ويشربون ويتمتعون، والآن أين ذهبوا؟

لقد صاروا مرتهنين بأعمالهم، لم ينفعهم إلا ما قدموا، كما أخبر بذلك النبي^ حيث قال:

«يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلاَثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ، وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ»

ففكر في هؤلاء القوم ثم سلم عليهم:

السلام عليكم دار قوم مؤمنين

والظاهر والله أعلم أنهم يردون السلام، لأنه يسلم عليهم بصيغة الخطاب "السلام عليكم" ويحتمل أن يراد بذلك السلام مجرد الدعاء فقط، سواء سمعوا أم لم يسمعوا، أجابوا أم لم يجيبوا، فعلى كل حال على الإنسان أن يدعو لهم، ويقول مقررًا ذلك المصير الحتمي: "وإنا إن شاء الله بكم لاحقون" أي وإنا متى شاء الله بكم لاحقون"[2]

2- اتباع الجنائز

والجنازة فيها الموعظة الملموسة، والعبرة المحسوسة، فهذا الذي تحمله الأكتاف، وتشيعه الأقدام، كان بالأمس جليسك وأنيسك، يأكل ويشرب ويلعب ويضحك، ثم

[1] - موارد الظمآن لدروس الزمان
[2] - شرح رياض الصالحين لابن عثيمين

كان خلاصه، وهروب روحه، ما أبلغها من موعظة، وما أشدها من تذكرة، إن رسول الله^ لم ينظر إلى شيء فيه موعظة وتذكرة للمؤمنين، إلا وأمرهم به وحثهم عليه.

لقد جعل اتباع الجنازة حق المسلم على أخيه المسلم فقال ^:

" حق المسلم على المسلم خمس منها اتباع الجنازة"[1]

وفي حديث آخر:

" حق المسلم على المسلم ست، وذكر منها: وإذا مات فاتبعه"[2]

وليس هذا الاتباع في صالح الميت، بقدر ما هو في صالح المشيع، لأنه يجني من اتباع الجنازة آثارًا بليغة في النفس، وعبرة عظيمة في القلب، إذ تذكره بمآله ومصيره، وأن حياته لا خلود لها.

إن اتباع الجنازة يذكر بالآخرة، التي لا يريد الله منا أن ننساها، لأن في نسيانها شر وهلكة، وحينما تتجرد النفس من ذكر الآخرة، فما أشد ما تجنيه من شرور، وما أبشع ما ترتع فيه من آثام.

3- عيادة المريض

لقد كان سليمًا قويًا عفيًا، ثم صار ضعيفًا هزيلا مبتلى مسكينًا.

ما الذي غيره؟ ما الذي حوله؟ أيمكن للقوة أن تزول، أيمكن للعافية أن تذهب؟

نعم فهذا حال الإنسان، متغير من حال إلى حال، لا يستقر على أمر واحد، يرتع في الصحة ثم يصيبه المرض، ينعم بالقوة ثم يعتريه الضعف.

إنه المرض الذي يرقد في الإنسان كما يرقد الميت، يتأوه فيه كما يتأوه من به سكرات الموت.

هناك شبه كبير إذن بين المرض والموت، فإذا زرت المريض، تمثل الموت في عقلك مباشرة، وتخرج من عنده وأنت منيب إلى ربك، تحمده أن عافاك مما ابتلى به غيرك، لقد حث عليها ^ لأنه يذكر بالآخرة كاتباع الجنائز.. قال ^:

"عودوا المرضى واتبعوا الجنائز تذكركم بالآخرة"[1]

[1] - رواه البخاري ومسلم
[2] - صحيح مسلم باب السلام

ثم بين ^ أجر عيادة المريض فقال:

" مَن عادَ مريضًا ، نادى مُنادٍ منَ السَّماءِ: طِبتَ ، وطابَ مَمشاكَ ، وتبوَّأتَ مِنَ الجنَّةِ منزلًا" [2]

وعن أبي هريرة τ قال: قال^ :

" إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني، قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده"[3]

وليست هذه العبادة مقصورة على المسلم فقط، فقد قال العلماء بأن الكافر غير المحارب، تجوز عيادته أيضًا، فإن رسول الله^ قد عاد عمه أبو طالب وعرض عليه الإسلام، وعاد الغلام اليهودي الذي كان يخدمه، وعرض عليه الإسلام فأسلم.

ولذلك تستحب عيادة هؤلاء إذا كان يؤمل أن يهديهم الله.

حتى المرأة الأجنبية.. يجوز للرجل أن يعودها، وأن تعود كذلك المرأة الرجل الأجنبي، فقد ذكر البخاري في صحيحة أن أم الدرداء عادت رجلا من الأنصار، وذكر حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

" لما قدم رسول الله ^ المدينة وعك (مرض) أبو بكر وبلال، قالت: فدخلت عليهم فقلت: يا أبت كيف تجدك، ويا بلال كيف تجدك؟ إلخ

وعلق عليه ابن حجر فقال: إنه يجوز (أي عيادة المرأة الرجل) بشرط التستر وأمن الفتنة.

وذكر أبو داوود في سننه (باب عيادة النساء) ثم ذكر حديثًا عن أم العلاء قالت: عادني رسول الله ^ وأنا مريضة فقال:

" أبشري يا أم العلاء فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه، كما يذهب النار خبث الذهب والفضة"[4]

قال بن عثيمين رحمه الله:

"في هذا الحديث فوائد عظيمة كثيرة تعود على العائد والمعود:

---

[1] - رواه أحمد وقال الألباني: حسن صحيح
[2] - رواه ابن ماجة
[3] - رواه مسلم
[4] - رواه المنذري حديث حسن

ومنها : أن الإنسان إذا عاد المريض فإنه لا يزال في مَخرَفة الجنة، يعني يجني ثمار الجنة حتى يعود .

ومنها : أن في ذلك تذكيرًا للعائد بنعمة الله عليه بالصحة، لأنه إذا رأى هذا المريض ورأى ما هو فيه من المرض، ثم رجع إلى نفسه، ورأى ما فيها من الصحة والعافية عرف قدر نعمة الله عليه بهذه العافية، لأن الشيء إنما يعرف بضده.

ومنها : أن فيها جلبًا للمودة والمحبة، فإن الإنسان إذا عاد المريض، صارت هذه العيادة في قلب المريض دائما على قلبه يتذكرها، وكلما ذكرها أحب الذي يعوده، وهذا يظهر كثيرا فيما إذا برئ المريض، وحصلت منه ملاقاة لك، تجده يتشكر منك، وتجد أن قلبه ينشرح بهذا الشيء .

أما المَعود فإن له فيها فائدة أيضا: لأنها تؤنِّسه وتشرح صدره، ويزول عنه ما فيه من الهم والغم من المرض، وربما يكون العائد موفقا يذكره بالخير والتوبة والوصية، إذا كان يريد أن يوصي بشيء عليه من الديون أو غيرها ، فيكون في ذلك فائدة للمَعود فائدة كبيرة.

ولهذا قال العلماء : " ينبغي لمن عاد المريض أن ينفس له في أجله " : يعني يفرحه يقول: ما شاء الله أنت اليوم في خير وما أشبه ذلك، يعني ليس بالضرورة أن يقول: أنت طيب، قد يكون اليوم أشد مرضًا من أمس، لكن يقول: أنت اليوم في خير، لأن المؤمن كله خير، كل أمر المؤمن خير، إن أصابه ضراء فهو بخير، وإن أصابته سراء فهو في خير، فيقول: اليوم أنت بخير والحمد لله، وما أشبه ذلك مما يدخل عليه السرور، والأجل محتوم ، إن كان هذا المرض أجله مات، وإن كان بقي له شيء من الدنيا بقي"[1]

[1] - شرح رياض الصالحين لابن عثيمين

الدعاء سفينة النجاة

الدعاء هو ذلك العمل الذي يدلل على اتصال المرء بخالقه، ورجائه فيما عنده من الخير والفضل، وفيه معنى العبودية الكاملة، لأنه افتقار وتذلل إلى الله تعالى.. ونحن لا يمكن أن نتحدث عن بعض وسائل التزكية ونغفل عن الدعاء لأنه كما ورد في الحديث

(الدعاء روح العبادة) أو (مخ العبادة) و قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ^:

(إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ) [1]

قال ابن القيم رحمه الله:

" هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ رِضَاءَهُ فِي سُؤَالِهِ وَطَاعَتِهِ، وَإِذَا رَضِيَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَكُلُّ خَيْرٍ فِي رِضَاهُ، كَمَا أَنَّ كُلَّ بَلَاءٍ وَمُصِيبَةٍ فِي غَضَبِهِ "[2]

وقال أيضا :" وَالْغَضَب لَا يكون إِلَّا على ترك وَاجِب أَو فعل محرم "[3]

وقال القاري رحمه الله في شرحه لهذا الحديث:

" لِأَنَّ تَرْكَ السُّؤَالِ تَكَبُّرٌ وَاسْتِغْنَاءٌ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ لِلْعَبْدِ. قَالَ الطِّيبِيُّ: وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ مِنْ فَضْلِهِ، فَمَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَبْغَضْهُ، وَالْمَبْغُوضُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ لَا مَحَالَةَ "[4]

وعن عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ^:

(إِذَا تَمَنَّى أَحَدُكُم فَلْيُكثِر ، فَإِنَّمَا يَسأَلُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ)[5]

والله يحب الملحين في الدعاء، قال ابن القيم:

" إِنّ اللهَ لَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ الْمُلِحّينَ، بَلْ يُحِبُّ الْمُلِحّينَ فِي الدُّعَاءِ، وَيُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ، وَيَغْضَبُ إِذَا لَمْ يُسْأَلْ "[6]

---

[1] - حسنه الألباني في صحيح الترمذي
[2] - الجواب الكافي
[3] - جلاء الأفهام
[4] - مرقاة المفاتيح
[5] - رواه ابن حبان (2403) والطبراني في "الأوسط" (301/2) وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (150/10) : رجاله رجال الصحيح . وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (1325)
[6] - الجواب الكافي

وقال أيضًا:

" وأحب خلقه إليه، أكثرهم وأفضلهم له سؤالا، وهو يحب الملحين في الدعاء، وكلما ألح العبد عليه في السؤال أحبه وقربه وأعطاه "[1]

وقد أوصى به سبحانه، في مواطن كثيرة من القرآن الكريم بالدعاء لأهميته وقيمته..

قال تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[2]

قال ابن جرير الطبري - رحمه الله -:

"وإذا سألك يا محمد عبادي عني: أين أنا؟ فإني قريبٌ منهم، أسمع دعاءهم، وأجيب دعوة الداعي منهم"[3]

ويقول الله تعالى أيضا:

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [4]

"أي ينبّه تعالى أنه هو المدعوُّ عند الشدائد، المرجوُّ عند النوازل؛ كما قال:

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾[5]

وقال تعالى:

﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾[6] "[7]

ويقول تعالى:

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾[8]

---

[1] - حادي الأرواح
[2] - البقرة: 186
[3] - تفسير الطبري
[4] - النمل : 62
[5] - الإسراء 67
[6] - النحل:53
[7] - تفسير ابن كثير
[8] - النمل: 62

أي: مَن هو الذي لا يلجأ المضطرُّ إلا إليه، والذي لا يكشف ضرَّ المضرورين سواه"[1]

وقال جل شأنه:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[2]

قال الإمامُ ابن كثير - رحمه الله -:

"هذا مِن فضله تبارك وتعالى وكرمه؛ أنه ندَب عباده إلى دعائه، وتكفَّل لهم بالإجابة"[3]

وقال سبحانه:

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[4]

قال الإمام ابن جرير الطبري - رحمه الله -: "ادعوا أيها الناسُ ربَّكم وحده، فأخلصوا له الدُّعاء دون ما تدعون من دونه من الآلهة والأصنام.

قوله: ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ أي: تذللًا واستكانةً لطاعته، ﴿ وَخُفْيَةً ﴾؛ أي: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين منكم بوحدانيته فيما بينكم وبينه، لا جِهارًا مراءاةً، وقلوبكم غير موقنةٍ بوحدانيته وربوبيته، فِعْلَ أهل النفاق والخداع لله ولرسوله"[5]

وفي السنة النبوية آثار ضخمة عظيمة تؤكد على فضل الدعاء وأثره في حياة المؤمن

عن أَبِي هُرَيْرَةَ τ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ^ قَالَ :

(إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمْ الْمَسْأَلَةَ ، وَلْيُعَظِّمْ الرَّغْبَةَ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاه) [6]

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

---

[1] - المصدر السابق
[2] - غافر: 60
[3] - تفسير ابن كثير
[4] - الأعراف: 55-56
[5] - تفسير الطبري
[6] - رواه مسلم

"وَمَعْنَى قَوْله : (لِيُعَظِّم الرَّغْبَة) أَيْ يُبَالِغ فِي ذَلِكَ بِتَكْرَارِ الدُّعَاء وَالْإِلْحَاح فِيهِ , وَيَحْتَمِل أَنْ يُرَاد بِهِ الْأَمْر بِطَلَبِ الشَّيْء الْعَظِيم الْكَثِير , وَيُؤَيِّدهُ مَا فِي آخِر هَذِهِ الرِّوَايَة : (فَإِنَّ اللَّه لَا يَتَعَاظَمهُ شَيْء"[1]

عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:

(سَلُوا اللَّهَ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الشِّسْعَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ)[2] ومعنى : (حتى الشسع) أي : حتى إصلاح النعل إذا انقطع .

وفي الحديث القدسي قول الله تبارك وتعالى:

(يَا عِبَادِي ! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِي ! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ، يَا عِبَادِي ! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ... يَا عِبَادِي ! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ"[3]

ويقول ابن رجب الحنبلي:

" وفي الحديث دليل على أن الله يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك، كما يسألونه الهداية والمغفرة، وفي الأثر : (ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع)، وكان بعض السلف يسأل الله في صلاته كل حوائجه، حتى ملح عجينه وعلف شاته، وفي الإسرائيليات: أن موسى عليه الصلاة والسلام قال : يا رب؛ إنه ليعرض لي الحاجة من الدنيا، فأستحي أن أسألك. قال: سلني حتى ملح عجينك وعلف حمارك.. فإنَّ كلَّ ما يحتاج العبد إليه إذا سأله من الله..

فقد أظهر حاجته فيه، وافتقاره إلى الله ، وذاك يحبه الله "[4]

وعن معاذ بن جبل τ عن النبي ^: قال:

(ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له، حتى ينفجر الفجر)[1]

---

[1] - فتح الباري
[2] - رواه ابن السني بسند صحيح
[3] - رواه مسلم
[4] - جامع العلوم والحكم

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ^:

(إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا)[2]

عَن أَبي الدَّردَاءِ τ أَنَّهُ سمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ^ يَقُولُ:

(ما مِن عبْدٍ مُسْلِمٍ يَدعُو لأَخِيهِ بِظَهرِ الغَيْبِ إلاَّ قَالَ المَلكُ ولَكَ بِمِثْلٍ)رواه مسلم .

وقال ^:

"لن ينفع حذر من قدر ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء"[3]

وعن سَلْمان الفارسي τ قال: قال رسول الله ^:

"لا يرُدُّ القضاءَ إلا الدُّعاء، ولا يَزيدُ في العُمرِ إلا البِرُّ"[4]

قال الإمام الشوكاني - رحمه الله -: "في هذا الحديث دليلٌ على أنه سبحانه يدفع بالدُّعاء ما قد قضاه على العبد، وقال أيضًا: الدُّعاء مِن قدر الله عز وجل، فقد يَقضي اللهُ على عبده قضاءً مقيدًا بألا يدعوه، فإن دعاه اندفع عنه"[5]

قال الإمام الغزالي - رحمه الله -: فإن قلت: فما فائدة الدُّعاءِ والقضاءُ لا مرَدَّ له؟ فاعلم أن مِن القضاء ردَّ البلاء بالدُّعاء، والدُّعاء سبب لرد البلاء، واستجلاب الرحمة، كما أن التُّرْسَ سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، وكما أن التُّرْس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدُّعاء والبلاء يتعالجان (أي يتدافعان)، وليس مِن شرط الاعتراف بقضاء الله عز وجل ألا يحمل السلاح؛ قال عز وجل:

﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾[6]

وألا تُسقَى الأرض بعد نَبْتِ البذر؛ فالله تعالى قدر الأمر، وقدَّر سببَه"[7]

هذا الحديث لا يدل على تغيير ما في اللوح المحفوظ، وإنما يدل على أن الله قدَّر السلامة من الشرور، وقدر أسبابًا لتلك السلامة، والمعنى أن الله دفع عن العبد شرًّا،

---

[1] - متفق عليه
[2] - رواه أبو داوود وصححه الشيخ الألباني
[3] - رواه أحمد والطبراني
[4] - صحيح الترمذي
[5] - تحفة الذاكرين للشوكاني
[6] - النساء :102
[7] - إحياء علوم الدين

وذلك مقدرٌ بسببٍ يفعله، وهو الدُّعاء، وهو مقدرٌ، وكذلك قدر أن يطول عمر الإنسان، وقدر أن يحصل منه سبب لذلك، وهو البِرُّ وصلة الرحم؛ فالأسباب والمسبَّبات كلها بقضاء الله وقدره"[1]

وترك الدعاء بلية ومعصية ودلالة على جفاء القلب وضمور العلاقة بين العبد وخالقه سبحانه

فعن أبي سعيد الخدري τ قال: سمعت النبي ^ يقول:

"إن الرزق لا تنقصه المعصية ولا تزيده الحسنة، وترك الدعاء معصية"[2]

بل تارك الدعاء والمعرض عنه هو أعجز الناس

فعن أبي هريرة τ قال:

"إن أبخل الناس من بخل بالسلام، وأعجز الناس من عجز عن الدعاء."[3]

قال الشاعرُ:

اللهُ يَغْضَبُ إن ترَكْتَ سؤالَه ♦♦♦ وبُنَيُّ آدمَ حين يُسأَلُ يغضَبُ

والدعاء هو المتأمل في حال قوم مبتلين، كيف لم ترفع بليتهم ومعهم فضيلة الدعاء

عن أنس τ أن النبي ^ مر بقوم مبتلين فقال:

"أما كان هؤلاء يسألون الله العافية؟"[4]

بل هو نداء الله وطلبه من عباده وسبيل نجاة من بلوائهم وخلاصا من شدائدهم

روى الترمذي عن أنس بن مالكٍ τ قال: سمعتُ رسول الله ^ يقول:

(قال الله تبارك وتعالى: يا بنَ آدمَ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا بنَ آدم، لو بلغت ذنوبُك عَنان السماء ثم استغفرتَني غفرتُ لك ولا أبالي، يا بنَ آدم، إنك لو أتيتَني بقراب (بملء) الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشركُ بي شيئًا، لأتيتُك بقرابها مغفرةً"[5]

---

[1] -(قطف الجنى الداني - عبدالمحسن العباد البدر - صـ 102).
[2] - رواه الطبراني في الصغير
[3] - مجمع الزائد للهيثمي
[4] - رواه البزار ورجاله ثقات
[5] - رواه الترمذي وصححه الألباني

قوله: (إنك ما دعوتني ورجوتني)؛ أي: ما دمتَ تدعوني وترجوني في مدة دعائك ورجائك غفرتُ لك على ما كان فيك من المعاصي، وإن تكرَّرت وكثُرَتْ.

قوله: (ولا أبالي): لا أهتمُّ بكثرة ذنوبك؛ إذ لا مُعقِّب لحُكمي، ولا مانع لعطائي.

والدعاء هو سبب من أسباب النصر، ولا يهزم قوم جعلوا من الدعاء من أسباب قوتهم وأسلحتهم

عن علي ابن أبي طالب τ قال:لما كان يوم بدر قاتلت شيئاً من قتال، ثم جئت مسرعاً لأنظر ما فعل رسول الله ^ فجئت فإذا هو ساجد يقول:

"يا حي يا قيوم، يا حي يا قيوم". لا يزيد عليهما، ثم رجعت إلى القتال، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك، ثم ذهبت إلى القتال ثم رجعت وهو يقول ذلك، ففتح الله عليه"[1]

وعنه τ أيضاً قال: قال رسول الله ^:

"الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض"[2]

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ^:

"ألا أدلكم على ما ينجيكم من عدوكم ويدر لكم أرزاقكم؟ تدعون الله في ليلكم ونهاركم، فإن الدعاء سلاح المؤمن"[3]

الأنبياء والدعاء

كان الأنبياء عليهم السلام يدعون الله عز وجل ويلجؤون إليه في شؤونهم.

فهذا أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام ودع زوجته وابنه قائلاً:

(رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[4]

وقد استجاب الله عز وجل دعاء الخليل عليه السلام، فها هي مكة كما نرى عامرة بالمسلمين من كل حدب وصوب، وفيها نعم الله ما فيها من الثمرات المختلفة، ولقد قال تعالى ـ دليلاً على استجابة دعوة الخليل ـ :

---

[1] ـ رواه البزار وإسناده حسن ورواه أبو يعلى بنحوه كذلك.
[2] ـ المستدرك على الصحيحين
[3] ـ رواه أبو يعلى وفيه محمد بن أبي حميد وهو ضعيف.
[4] ـ إبراهيم: 37

(أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيءٍ رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لايعلمون)[1]

فما نحن فيه الآن في مكة بعد توفيق الله هو ببركة دعاء أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام

ويقول الله عز وجل عن نبيه الصابر أيوب:

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

فيقول سبحانه وتعالى في الآية التي تليها

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾

وهذا موسى كليم الله عليه السلام لما قال له الله عز وجل:

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

تذكر أنه لا حول له ولا قوة إلا بالله فدعا ربه قائلاً

(قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا)

فقال له الحق سبحانه قريب الإجابة (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى)

وهذا نبي الله زكريا عقيم بلغ من الكبر عتياً لم يرزق الولد فدعا الله قائلاً :

(وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين)[2]

وهذا يونس ابن متّى عليه الصلاة والسلام يوم التقمه الحوت فزع إلى مولاه وهو في الظلمات (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)[3]

فقال سبحانه" (فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين)[1]

---

[1] - القصص: 57
[2] - الأنبياء: 89-09
[3] - الأنبياء: 87

وهذا نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه يدعو ربه يوم بدر يوم الفرقان

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ τ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ^ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلا ، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ^ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ :

" اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ) فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ . . . "[2]

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله -: والدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، وهو من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن.

وللدعاء مع البلاء ثلاث مقامات:

1- أن يكون الدعاء أقوى من البلاء فيدفعه.

2- أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد، ولكن يخففه وإن كان ضعيفًا.

3- أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه"[3]

ومن هنا وجب على المسلم الراجي تزكية نفسه، والقرب من ربه سبحانه، ألا يغفل عن خير الدعاء، وما يجره من الفضل العميم في حياته وآخرته، نحن نريد للمؤمن أن يديم على الدعاء ويدمنه ويجعل منه أورادًا يومية يتذلل بها إلى خالقه، ويطلب منه حاجته ورغائبه.. نريد للمؤمن أن يدمن الدعاء ويكثر منه، ولله در القائل:

دعوتك ما سئمت وما قنطت ** وصاحبني دعائي حيث كنت

دعائي فرحة ضاف مداها** يظلل دوحتي أنى اتجهت

لقد سكن الدعاء دمي وعظمي** وصار نجيّ أشواقي وصرت

له خدناً وصرنا فيض نعمى** ومشكاة بها نور وزيت

• • •

[1] - الأنبياء : 88
[2] - رواه مسلم
[3] - الجواب الكافي

وإني المرء أدعو إن أصبت** وأدعو إن وهنت وإن أسأت

وأدعو بين أصحابي وأهلي** وأدعو إن نأيت وإن خلوت

وقد يجري الدعاء على لساني** كشحرور وقد يغشاه صمت

• • •

إذا ضلت خطاي وفلّ عزمي** وإن فرّطت يوماً أو أثمت

وإن لاحت عِقاب في حياتي** وإن خان القريب ومن أعنت

وصار الحزن أكواباً دهاقاً** وأشواكاً لها وخز وبغت

لجأت إلى الدعاء فكان عوني** وكان السيفَ يبرق وهو صلت

فأسعفني وكان أخاً حفياً** يقول: لك الأمان فقد أجرت

فعدت مظفراً فرحي رحيب** وولّت حسرة عني ومقت

كأني بلبل غرد بروض** يباكره الهتون وقد عزفت

أناشيدَ الرضا تعلو فأعلو** لأجتاز العِقاب وقد طربت

وقلبي مثل عقلي مثل جسمي** خيول صافنات حيث رحت

وروحي طلقة ريّا وجذلى** كأني ما أثمت وما تعبت

• • •

وأدمنت الدعاء ولي يقين** بأني بالجواد البر عذت

قصدت رحابه فإذا جنان** حسان باسمات فابتسمت

وقلت لعل لي فيها مفازاً** فقال الله: يا عبدي استجبت

تم بحمد الله

المحتويات

مقدمة 2
حاجتنا إلى التزكية 5
أيها العصاة.. لا يأس من رحمة الله 11
الرفق واللين بأصحاب المعاصي 16
أداء الفرائض والنوافل 20
الإنفاق في سبيل الله 32
قراءة القرآن وتدبره 36
ذكر الجنة والنار 46
مجالس الإيمان 50
الصحبة الصالحة 53
محاسبة النفس 55
ذكر الموت 61

الدعاء سفينة النجاة 69